E M A D B L A K E

عماد البليك

المشروع السَّردي

بث مباشر

روايـة

المشروع السَّردي

بث مباشر

عماد البليك

Deposit Number: 171132 / 2021

ISBN: 678 - 977 - 6597 - 78 - 3

© Willows House 2021

الطبعــة الأولــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكة، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطّيّ من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

المشروع السَّردي

بث مباشر

«.. أحيانا نترك بعض الأحلام لتتحقق بعد موتنا، قد لا يكون في حياتنا متسعاً لكل شيء.. ربما أننا خلقنا لكي نبقى ذكرى في أناس آخرين بعدنا..»

إميلدا

* * *

مرة كتبت على دفتر قديم.. ولم أكن أتوقع أن ذلك سوف يحدث ذات يوم..
«.. مثل كوم زبالة سوف يتعاملون معك.. هم البشر أتعرف ذلك.. لا تقل لي أن هناك من يتعاطف معك لمجرد إنك إنسان!..»

* * *

«الطيور تسافر بعيداً ولكن عليها أن تغادر لأوكارها ذات يوم»

مدير قناة (اوول آرب) All Arab

قبل البث

هـذه ليسـت روايـة علـى أيـة حـال، حتـى لـو كتـب علـى غلافهـا كذلـك. كمـا أن الشـخص الـذي يسـرد قصتـه، حكايتـه هنـا. ليـس هـو البطـل المفتـرض فـي الروايـات الـذي يظهـر وكأنـه الضحيـة أحيانـاً أو ربمـا المغامـر، الجسـور. لـن أكـذب عليكـم وأزيـف. هـذا مـا حـدث بالضبـط. فيـه أفـكاري وبعـض مـن ظنونـي ومقـالات قديمـة تـم إعـادة إنتاجهـا هنـا. ليـس هدفـي أن أكتـب روايـة لأننـي فـي الأسـاس لا أفهـم كثيـراً لمـاذا يكتبونهـا؟ هدفـي إن فهمتـه جيـداً أن أثرثـر مـع نفسـي. حـدث ذلـك. ذلـك أنـا كمـا أبـدو عاريـاً أمـام نفسـي وهواجسـي. هـذه خيبتـي وخيبـة بلـد أنتمـى لـه، رغـم أنفـي!!

أعز أصدقاء م. ع

* * *

تنقل في كل بلدان الأرض وعد لوطنك في آخر المطاف..
حيث ستجد حتماً كل شيء تغير
الناس والذكريات والأمل
وحيـث لا يوجـد ذلـك النهـر القديـم ولا الحلـة التـي عشـت فيهـا الطفولـة،
وحيث أطفال يهرولون في الأزقة التي تركتها ضاحكة..

كان غيابك طويلاً إذن يا سيدي.
يبدو أنك لم تعد تحسب الزمن، منذ أن رفعت قدمك الأخيرة عن تراب البلد.
يومها كانت المدن لا تعرف اللعنات أم تتصور ذلك!!
مرات نتخيل أشياءَ ليس لها من وجود إلا في قلوبنا وعقولنا.
في خيبات الأمل التي نكون قد عشناها سنيناً وسنيناً.
في الأوجاع التي تتخلل كل مساماتنا ولا تعود تغادرها إلا أن نرحل إلى زمن جديد.. وساعة يأتي ذلك الوقت المحدد لنا، نكون قد بكينا كثيراً. دموعنا انتفضت وابتلعتها الأرض. ولم يبق سوى الانتظار الممل للموت.
يأتي الموت عجولاً سريعاً أحياناً. ومرات يتأخر جداً.
يأتي لكي يعلمنا أن الحياة مجرد مزحة بائسة..
الدروب ليست هي التي نختارها بل هي التي تختارنا وتحلق بنا في الفضاءات المنسية..
القلق هو الذي يسكننا.. لا الذين نحن نسكنه..

* * *

بث أول
فندق كولن ولسن

١

ببساطة وجدنا أنفسنا واقفين ورؤوسنا باتجاه الحائط الأسمنتي العالي جداً. لا يمكن لأي منا أن يعرف كم يرتفع بالضبط! وليس ذلك مهما. ففي مثل هذه اللحظات ليس للإنسان أن يفكر في سوى مصيره كيف يتخلص من الوجع الذي يعانيه في الوهلة المباشرة.

سمعت زميلي المهندس الفلسطيني، بسخريته، يتكلم هامسا. لا أظنه خائفاً بقدر ما كان يمضي في نظرته العبثية للحياة.

قال لي:

«إنها الأوطان.. ليس هناك أحلى منها.. أحمد الله أنه ليس لي من وطن»

كان يريد أن يمضي في الثرثرة إلى أن ركله أحدهم على ظهره بحذاء عسكري من النوع القوي الملطخ بالطين والوحل، فالخريف كان شديداً هذه السنة في البلاد.

قبل أن نصل بيوم عرفنا أن آلاف البيوت قد دُمرِت في محيط

العاصمة وحدها. والسلطات ليست مهتمة بما يجري. غير حافلة البتة كعادتها. كان المهندس أنس يردد:
«ومن متى كان للمواطن في بلداننا قيمة؟!.. هذا أمر مؤكد»
كان يرد على تذمري، وعلى زعلي أن هذا الذي يجري لا يمكن السكوت عنه. ثم يمضي لأن يكلمني مجدداً وهو يستلقي على المقعد في الطائرة بعد أن يرجعه قليلا للوراء:
«أنت إنسان حالم صدقني.. وهذه مصيبتك.. لو تعاملت ولو لمرة مع الحياة بواقعية ما كنت قد وصلت إلى هذا الحضيض»
إذن هو يشتمني وأنا أسمع له ولا أرد عليه.. السخرية ساعة تتجاوز الأدب والذوق حتى بين الأصدقاء تصبح قاسية ومدمرة للذات.. أشرت له بطرف أصبعي أن يصمت.. كان تحذيرا واضحا.
تركني ولم يرد مرة أخرى، شرع في النوم إلى أن وزعت موظفة الخطوط الجوية الاتحادية علينا أوراقاً صغيرة، مطلوب أن نعبئها قبل دخول البلد. في الغالب لا أحد سيحفل بها فسرعان ما سيرمي بها الضابط في السلة تحته، لكنه طقس لابد منه، البيروقراطية في بلداننا. عادات تتكرر ولابد منها حتى لو لم يكن من وراءها جدوى.
هبطت بنا الطائرة أنا وأنس مهندس الإرسال التلفزيوني، وسوسن شعراوي المذيعة المعروفة بقناة (اوول آرب) All Arab، لنصبح على الأرض التي سوف أسميها افتراضاً بلدي. فأنا أبدو في حقيقتي مع نفسي زائرا غريباً، مثل كائن فضائي

يهبط على كوكب ثانٍ. وقد بدأت هذه الدهشة من السماء، فمعالم المدينة ومن علٍ تغيرت كثيراً بحيث لا يمكنني القول بأن هذه العاصمة التي تركتها قبل عقدين من الزمان.

كنت أسأل نفسي، وبشيء من التوجس ينتاب قلبي: «هل هذا البلد الذي عشت فيه طفولتي وصباي؟ أم أنه مكان آخر ليس لي به أي علاقة؟»

كانت عبرة مخيفة وموجسة للذات، تجعلني غير قادر على الكلام، فآثرت الصمت، أحاول أن أطرد المشاعر السلبية التي خيمت على روحي، وجعلتني أعيش حالةً من الخوف المفاجئ، مع محاولتي أن أبدو متماسكاً ما أمكن، وشرعت أكلم نفسي:» لأي بلد أنتمي إذا كنت سأشعر بالغرابة والغربة في بلدي؟!»

لو كنت أحمل جوازا آخر، لكان الأمر هيناً، ولكن الحلم بهذا الشيء لم يتحقق، فطالما كنت أود ذلك. لكنها أقداري لم تمنحني هذا الشرف. لم يُتح لي أن أسافر وأعيش في بلد يمنحني هويته، أبداً لم أر أمريكا ولا بريطانيا، كل تحركي كان في منطقة الشرق الأوسط والخليج العربي إلى باكستان شرقا وأوكرانيا شمالاً التي هي الاستثناء الوحيد في حياتي، والمكان الذي غيّر رؤيتي للعالم، حيث درست هناك وشهدت لحظات مفصلية من تاريخ ذلك البلد الذي يعيش منذ سنوات أحداثاً مزعجة، لا مكان الآن في العالم يبدو أنه ينام في هدوء.

إذ بها الطائرة تهبط على مدرج المطار المتهالك، أشعر بحزن عميق، ربما كان ذلك الأسى الذي يكسوني متعلقٌ بذاتي «أنا»،

بضياعي في هذا العالم وهزيمتي وإحساسي بأنني كائن بلا هوية، وربما كان ذلك الإحساس له ارتباط بأمور أخرى تحدث ليس لي أن أفهمها بالضبط، فنحن البشر كائنات شريدة أسرى الغموض والمجهول، حياتنا موجهة بهذه الأقدار التي تصنعنا ولا نفهمها، لا نقدر على فك شيفراتها العجيبة.

«هذا وطن آخر» قلت لنفسي، وأنا أرى المطار المقام على أرض منبسطة، وحوله بنايات عادية لا تبدو مثيرة لي. ليس في هذا البلد ما يثير انتباهي إلى اللحظة حتى لو أنه كان يشغل مخيلتي وعالمي ذات يوم مضى. هل هو عقلي ودماغي الذي كبر أم أن هذه البلاد عادت للوراء؟! تقهقرت للحضيض كما يقولون عنها كثيراً.

لم يترك لي مجموعة من الشباب الذين هرعوا نحونا عند بوابة الطائرة أي فرصة للتفكير مع النفس والتأملات الصافية حتى لو أنها مزعجة تشعر الذات بالتوتر، فقد أسرعوا لحصارنا ومُسألتنا:

من أين جئتم؟..

هل أنتم الفريق التابع للفضائية الفلانية؟

كانوا يطلقون الأسئلة ممتزجة بالقهقات التي تتلاشى لأعلى مع دخان سجائرهم الذي ينفثونه في الفراغ الحار، فرغم تساقط قليل من قطرات المطر في الخارج إلا أن الجو كان حاراً جداً وخانقاً. حتى المناخ يبدو أنه فقد خصائصه القديمة فالعادة أن الأمطار تأتي معها بانتعاشة لا تكرر، ليست برودة ولا سخونة، شيء محبب ورائع. لو كان هذا صحيحاً قبل أن

أغادر البلد، فيعني أن التغيير قد حدث وإلا كنت من يتخيل أشياء في ذاكرتي ليس لها من وجود أساساً، مجرد أوهام.
وقف أمامنا شاب أصغر مني بعشر سنوات تقريباً.. في الثلاثين يعني أو أقل أو أكثر بقليل.. فعلاقتي مع الأعمار ضئيلة وضعيفة، وكلمني شخصياً بصيغة الجمع، ما معناه، أن هذا البلد له قانون وكان يجب أن نكون عارفين بذلك وبالتالي نحترمه وأن علينا أن لا نكثر الجدل الآن وننصرف ولكن دون ما معنا من أجهزة ومعدات - هي ليست ملكنا في الأساس وإنما ملك الفضائية - وببساطة تم الاستيلاء على كل شيء، ما يعني أننا لن نكون قادرين على العمل.
ما حدث من اعتقالنا بالمطار ومصادرة أجهزتنا، مثّل مفاجأة لنا، فالمحطة التي نعمل لصالحها كانت قد سوت الأمر مع الحكومة هنا، لتنهي أزمة مستمرة لأكثر من سنتين بلغت ذروتها قبل ثلاثة أشهر، حيث كانت الخصومة كبيرة جداً، ولم يكن من مؤشر يدل على أن العلاقة سوف تصبح على ما يرام.
لكن منذ أسبوع ظهر وزير الإعلام المحلي وأعلن أن هناك شهر عسل حقيقي بين الطرفين، ما دعا مدير القناة إلى التعجيل بسفرنا لتغطية الانتخابات الرئاسية والتشريعية والحملة التي تسبقهما، وقد أوصانا بعبارات موجزة:
«ليس كل ما يجري حقيقي أو أن له معنى لا تبحثوا عن متاعب.. فقط نريد أن نكون موجودين في موقع الحدث»
كان يمكنني أن أرد على مديري، بأن هذا يعني التضليل والكذب على الملايين الذين يتابعون الفضائية والذين يثقون

في مصداقيتنا، وكان ممكناً أن أخبره أننا بدأنا في الانهيار ساعة قررنا أن نداهن بعض الدول الحقيرة التي ليس لها قيمة إلا لمالها، لكنني آثرت الصمت، فرئيسي ليس له من بال طويل ليسمع لي، هو يتكلم مثل آلة وغالباً لا يكون قد وعي جيداً ما تفوّه به قبل قليل، بإعتبار أنه في أغلب الوقت يكون سكراناً. غير أنه في الخلاصة، يظل مديري ومسؤولي الأول في العمل ومن يقرر سياسة القناة، وما دام أرباب العمل يضعون ثقتهم فيه فما شأني؟!، قلت لنفسي ذلك وأنا أفكر في مصائرنا الراهنة، وأتناسي علاقتي المشوشة والمتوترة أساسا في الشهور الأخيرة معه.

أُفرِج عنا بعد أن قام الشاب الأمني بجرّ قلم من الدرج الحديدي المتآكل من أطرافه بالصدأ، أمرني بأن أوقع على الملف أمامه في موقع معين أشار إليه بأصبعه المخضب بالأوساخ، فثمة أظافر طويلة تدس وراءها كمية من القذارة المتراكمة، كان منظره مقززاً، لكن وجهه يعكس شخصاً هادئاً غير افتعالي أبدا.

نفذت الأوامر بحذر، بل شكرته أن كان لطيفاً كنوع من الدبلوماسية اللبقة التي تعلمتها في الحياة ولكن من أين؟ لا أعلم. المهم أنها باتت جزءا من طبيعتي.

كان لابد لي أن أكون لطيفاً خشية أن يتعقد الموقف وأيضا لأنني أعلم بالضرورة، أن هذا الشاب ليس إلا قطعة صغيرة، ترساً في الماكينة الكبيرة التي دمرت هذا البلد، تلك الآلة التي مهمتها الفرم، فقد طحنت الناس والأشجار والجغرافية،

لـم يبـق أي شـيء مـن ذلـك المـكان القديـم الـذي تركتـه منـذ أن كنـت علـى أعتـاب الجامعـة ولـم أعـد إليـه إلا اليـوم..
الأيـام القليلـة التـي قضيتهـا هنـا لثلاثـة أسـابيع ليـس أكثـر، ورغـم تسـارعها جعلتنـي أخـرج بهـذا الـدرس، أن أفهـم نوعـاً مـا طبيعـة هذه الآلـة، الماكينـة، أن هـذا الـكل يتـم فرمـه هنـا وتقديمـه وجبـة لآخريـن لا تعـرف مـن يكونـون!

٢

تهبط الطائرة في بلدي. وطن آخر غير الذي تركته، كما كان قد تنبأ لي الزملاء من بني جلدتي في القناة قبل أن نسافر، وهم يخبرونني:
«لن تجد سوى ذكرياتك.. أما ما تركته في الماضي فعليك أن تنساه فورا»
لم أكن مصدقاً.. قلت إنهم يتوهمون بعض الشيء. صحيح إنني أعلم من خلال متابعتي اليومية للشأن السياسي والحياة في بلدنا أن ما يجري ليس على ما يرام، طبعا بحكم عملي في الأخبار، وليس كثيراً بحكم الاهتمام بأن يكون وضع البلد جيداً، فغالباً وفي فلسفة حياتي أنني أندمج مع الأشياء التي أمامي وأعيشها وأنسى ما سواها.
وإن كان لسان حالهم هو أنه يجب أن استعد للأسوأ، فقد كانوا يقولون ولكن أحيانا تحدث «أقدارٌ جميلة»، وطبعا كانوا يمزحون. فالجمال الذي يفترضونه ليس إلا مجرد دعابة، لأن هذا البلد تغير كثيراً، فإحدى وعشرين يوماً كانت كافية تماما لاكتشف ان السنوات التي غبتها بدلت كل شيء تقريبا. جعلت

من هذا المكان الذي كان يشغلني بالألفة والحنان عالماً آخر ليس لي فيه سوى الجراح والألم والكراهية، ليس أمامي سوى مواجهة حقيقة ما أحب وما أكره في الوقت نفسه.

تبدو الخرطوم من السماء وقد توسعت كثيراً وامتدت في كل الاتجاهات ولكن بغباء شديد، كأنها مدينة من كوكب آخر غير الأرض منزوعة منها الرحمة والشفقة والجمال، إحساس ظل يطاردني دون أن أعرف سببه، ليس لكل المشاعر أن تخضع لقانون المنطق، يكفي فقط أن نحس بها وتجري في دمائنا. وكنت أكلم قلبي: «عذرا لا تحاسبني على هذا.. فأنت من يشعر به».

ولا أدري لما أُتصورّها من كوكب آخر؛ لأن المدن القادمة من السماء من المفترض أنها تشبه الجنة، فهي النعيم والهناء وهذا ما تفتقده المدينة التي سوف أسميها ذات ليلة وصولنا بالجحيم الأرضي أو رماد الجحيم ساعة تنتهي كل الحرائق ويحمل الرماد إلى جهة مجهولة، فليس هنا سوى العذاب والترهات، ففي حياتي لم أتعرض للإهانة كما أتعرض لها اليوم في المكان الذي من الواجب أن أحترم فيه وأعامل بتقدير، أليس القدماء كانوا عندما يرغبون في عقاب أحد ينفونه عن الأرض، فلماذا أصبح الوطن اليوم منفى في حد ذاته؟!..

لم نمض وقتا طويلاً مع الشاب داخل غرفة قصيرة معروشة بالخشب بجدران مخربشة، تجاور مبنى القادمين بالمطار، فقد تم إطلاق سراحنا مع التعهد بعدم بث أي شيء.. وكيف سنفعل وكل عدتنا وأجهزتنا قد أخذت عنا، حتى هواتفنا النقالة نوع

الثريا التي تتصل بالأقمار الاصطناعية مباشرة تمت مصادرتها، لم يبق لنا سوى حقائب السفر التي بها ملابسنا وبعض من السجائر المستورد وحلوى الشوكولاتة والباندول وحبوب منع الحمل التي لا نعرف كيف سنوظفها بعد، وأغراض كماكينات الحلاقة الجاهزة والتي سوف يتم سرقتها جميعا بالإضافة إلى الحقائب وذلك في الفندق الذي سوف نقيم فيه.

أخذنا تاكسي قديم وبطيء الحركة يفتقد للإشارات ووكرة الباب، من المطار إلى فندق بوسط السوق الرئيسية في العاصمة، اسمه السوق العربي وليس له علاقة بالعرب في الإسلام ولا الجاهلية، يعيش فيه أناس متشردون وباعة متجولون وفيه محلات تبيع ملابس بالية كأنها معادٌ غسلها وكوائها بهدف عرضها على أنها جديدة. كل ما ترغب فيه سوف تجده هنا، لكنها ماركات رديئة وغالبا «صنع في الصين».

تعرفنا على هذه التفاصيل كلها في المساء ونحن نتجول في المكان، والكل تقريبا يعرف أننا غرباء، أنا وأنس وسوسن التي كان الكثير من السفهاء يحيطون بها في محاولة لإثبات فحولتهم، وهي طبعا مشهورة بخلافنا، فهي تظهر في نشرات الأخبار في التاسعة مساء بتوقيت الخرطوم، لهذا لا يوجد أحد شاهد التلفزيون إلا ويعرفها، لكن رؤيتها على الواقع أمر آخر، فهي أجمل من التوقع المباشر، وبخلاف ما تبدو بعض المذيعات جميلات في الشاشة وأقل خارجها، كانت هي تزداد بهاء كلما ابتعدت عن الاستوديو، ومع حر الخرطوم وغبار لطيف في أول الليل، بدت كمن اغتسل للتوّ بماء المطر، مثل

حورية تخرج من نهر النيل.
هذا يريد أن يسلم عليها، وهذا يمازحها، وآخر يريد أن يتأكد هل هذه هي أم امرأة أخرى، وهناك من عرض عليها الزواج، ودعوة من صاحب هذا المطعم، وتلك صيدلانية تترك الزبائن وتحلف بأن نجلس قليلاً لنحتسي فناجين قهوة عند بائعة الشاي في الشارع، لنكتشف أن هذه الصيدلانية سحاقية تعرض أن تنام مع سوسن ولو لنصف ساعة مقابل أي شيء ممكن. تقول إنها يمكن أن تدفع أي مبلغ؛ إنها ثرية جداً تتكلم عن نفسها بتبجح ودون أدنى خجل، وكنت أكلم نفسي: «ما هذا البلد!!»..
الغريب.. والغريب جدا أنها جميلة جداً، بل هي أجمل من سوسن بكثير، فسوسن تبدو مثل دمية باهرة الجمال لكنها هذه السيدة التي يلقبونها بميرنا، رائعة بمسحة طبيعية لا يبدو أنها تستعمل أي من أدوات التجميل والمساحيق، لديها شفتان مغريتان، وعينانٍ كبيرتان وأنف مسلوب بشكل دقيق، إنها من بنات الحور العين كما وصفها المهندس أنس.
هربنا بشتى الحيل من ميرنا وغيرها من النساء والرجال، إلى أن أغلقنا على أنفسنا في الفندق كل في غرفته، كانت ليلة أولى مثقلة بالضيق، فالماء معطل والحمام لا تعمل صنابيره، كما أن الكهرباء تقطع وتجيء وقد اعتذر المدير لنا بأن قال:
«هناك محول كهربائي في نهاية الشارع قد خرب فقط هذا النهار»
يحلف بالله ثم يمضي ولا نهتم به، فقد تعلمت منذ ساعاتي الأولى يجب أن تفهم أنه لا أحد صادق هنا، كلهم أفاكون.

«المحـول الكهربائـي سـاعة يخـرب لا نفقـد الإنـارة فحسـب، بـل أيضـا ينقطـع المـاء، لأن المـاء هنـا مرتبـط بالكهربـاء»
يشـرح لنـا الرجـل ذلـك ولكـن دون إطالـة فـي الـكلام، فقـط كمـن يقـدم حـلا لمعادلـة لوغاريثميـة مسـتعصية بطريقـة يعتقـد أنهـا سـهلة الفهـم للجميـع ثـم يصمـت، فمـا أسـهل الأمـور ومـا أوضـح الحلـول، هـذا مـا يبـدو مـن الوهلـة الأولـى، لكـن هـذا البلـد أعقـد مـن ذلـك بكثيـر كمـا كنـت أتعلـم يومـا بعـد يـوم.

٣

بت بعفني، لا أقدر على تحمل رائحة جسدي، ولكن ماذا أفعل، ولم يكن لي من رغبة سوى الغوص في النوم كثيراً جداً. أن أنسى أنني في هذه المزبلة، فوق لحاف لا أدري من نام فوقه من قبلي، فقد بدأ مهترئاً وقاسياً وتحته سرير من الحديد الشبكي الذي يُوجِّع الظهر، أبدا لم أدخل ذات يوم من قبل فندقاً كهذا، لكي اكتشف أنه يمكن أن تتعذب بهذا الشكل، وهكذا كان علينا أن نقرر في اليوم التالي أن نُغيِّره بأسرع وقت، لكن لم نفعل ففي هذه البلاد الإنسان أسير العادة حتى لو جاءها ضيفا، وكل رغبة تبدأ قوية ثم تتلاشى في أسرع وقت.

ذلك الليل كان درسا قاسياً، كأنني أدخل سجون هتلر أو أعيش عزلة في مكان لابد لي أن أتعذب فيه، نعم ليلة من العذابات، يالله من وضع جنوني.

كانت سوسن شعرواي تصرخ وهي غير قادرة على الاحتمال في حين يضحك أنس بطريقته الساخرة من كل شيء حولنا، على الأقل ليس عنده وطن لكي يتكيء عليه، كما يكرر دائما.

في الفجر الباكر كنا ثلاثتنا قد استيقظنا وتقابلنا في بهو صغير تفتح عنده مباشرة بوابة خشبية تكاد تسقط على الأرض تقود

إلى حماميـن أحدهما رجالي والآخر نسائي، لن تقدر على الفرز بينهما، إذ لا وجود لتلك اللافتة الإرشادية المعروفة التي تحمل صورة رجل وامرأة، وهذا يعني التجريب لتصبح أنت وقدرك، وإلا فالسؤال إذا كان هناك من سيتبرع ليقدم لك إجابة إذا لم يطالبك بدفع الثمن، فالكل يمكن أن يخدمك ولكن يجب أن تدفع أولاً.

مدير الفندق نفسه كان مستيقظاً وهو مستلق على الأرض فوق سجادة، أوضح لنا إنه ينتظر صوت مؤذن صلاة الصبح ليصلي وينام قليلاً، فقد سهر كثيراً في إجراءات روتينية لابد منها.

لم يشرح ماهية تلك الأمور كما أننا غير مهتمين، وتركناه يتكلم مع نفسه وهو يضع التمباك وراء شفته السفلى لتبرز إلى الأمام بطريقة درامية بتوصيف أنس، الذي أخبرني أن عيني الرجل ليستا على ما يرام وليس السبب السهر في تقديره إنما أمر آخر، ولم أفهم ماذا يعني بالضبط!

أنس لديه خبرة بالسودانيين جيدة ربما أفضل مني، يقول إنه عاشرهم في عقدين من الزمان، سافر معهم في مهام كثيرة، ونام في غرفة واحدة مع بعضهم، وأكل وشرب، هو يحبهم بشكل مبالغ فيه لكنه لا يحترمهم أحياناً كما يبدو لي، هل هي طريقته اللاذعة وسخرياته أم أن ثمة سبب آخر يدعو لذلك في بعض المرات؟ لا أعرف بالضبط. ما أنا متأكد منه أنه ساعة يشرب العرق، يقوم أحياناً بتوجيه الشتائم القبيحة لكل العالمين إلا السودانيين وذلك ربما لسبب بسيط لرجل سبق أن تعرض للهزيمة النفسية، أنه أحب امرأة سودانية ذات يوم ولكن لم

يتزوجها، كانت زميلته في إحدى صحف الخليج، وكانت بارعة الجمال، سمراء مصقولة كالبرونز المطلي بلونية خاصة، يعيد شكلها وصورتها ويرسمها لك بأناقة، ثم يتجرع كأساً وراء كأس، ويحك شيئا ممتلئاً أسفل قميصه المتدلي، يفعل ذلك دون انتباه، ليصمت في النهاية، ليس هو ذلك الشخص الساخر، إنه مع الشراب إنسان آخر وديع ومسالم، ثم يقول بعد صمت:
«أنتم السودانيون مهما أقبل عليكم التطور تراجعتم للوراء»
أتركه ليكمل فأنا أعرف عمق ذلك الجرح الذي أصابه، إنه الحب يفعل أبشع من ذلك ولا يلتئم سريعاً.. قد يكون سبباً في السعادة الأبدية والمحبة الفائقة وقد يحدث العكس أن يجعل الكائن يصبح شريراً أو منتقماً.. لقد جربته وأعرفه كيف يكون.
وأسمعه يزبد قائلاً:
«شرموطة[1] ليست إلا...»
«لكنك كنت تحبها.. هل تشمتها اليوم لأنك قد فقدتها، ولأنها جعلتك تواجه نفسك يا حمار..»
قليلا ما أمزح معه في الأمور الحساسة.. لكن وهو سكران لا بأس، لن يكون شريراً جداً.. أكثر ما يفعله هو براعته في تشغيل اللسان بلا حسبان.
يكلمني عن العادات التي كانت سبباً في عدم ارتباطهما، قال لي:
«تدعي التحضر وتقول إنها متطورة وتنصاع لقرار أمها...

---

١ - شرموطة كلمة دارجة سودانية تعنى عاهرة..

هههـه»
ثـم يضحـك كثيـراً دون أن يفصـح عـن اسـم تلـك الحبيبـة التـي لا أعـرف هـل هـي حقيقـة أم مـن نسيج الخيـال.. ولا أدرك سـبب عـدم زواجهمـا رغـم حـب جـارف جمعهمـا كمـا يؤكـد كثيـراً.
ينـام ووجهـه علـى الطاولـة لا يوقظـه إلا نـادل أو نادلـة يكـون المقهـى قـد اقتـرب مـن موعـد الإغـلاق وعلـى الزبائـن أن ينصرفـوا، أمـا أنـا فمهمـا شـربت فرأسـي لا يـدور ولا يحـدث معـي خلـل أبـداً، كان يداعبنـي أن رأسـك هـذا مـن فـولاذ، ثـم يبصـق علـى الأرض طويـلا ونحـن نسـلك الطريـق عائديـن كل إلـى مخدعـه قبـل أن يأتـي يـوم جديـد.

٤

بشهادة أنس فالرجل الذي يجلس أمامنا - ومن الواضح - أنه من مدمني البنقو، تلك السيجارة العجيبة التي ما أن تفركها باليدين ورقاً قبل أن تلفها تكون قد بدأت في دخول عالم آخر. ومن يجربها يفضلها على العرقي والمريسة المصنوعة من الذرة، قد لا يكون هذا الحكم عاماً لكنه بالنسبة لمدير الفندق أساسي في فهم هويته، فذاكرته وكل تفاصيل وجوده تبدو كما لو أنها معطلة دون هذه السيجارة كما يشهد الجميع هنا.

هذه الهوية التي باتت ضرورة لمن يحاول أن يفهم الحياة بطريقته الخاصة، كما شاهدنا في أحد الفيديوهات المتناقلة عبر «الوتس آب» والتي يظهر فيها شباب يجلسون في غرفة ضيقة، وهم يتغنون ويمجدون البنقو كشيء ساحر في عالم لم يعد محتملاً على حسب تصوراتهم، لولا هذا الحشيش الرائع.

بالنسبة لمدير الفندق فإن طقس السيجارة يصبح مهما خاصة في أوقات الصباح الباكر، عندما يجلس في ركن من الصالة ويبدأ في نفث الدخان في الفراغ غير مبالٍ بالزبائن ولا الحكومة، فهو يعلم أن بعض صبيتها يتجولون هنا ولساعات في

سبيل الحصول على معلومات عن الوفد التلفزيوني الذي من المفترض أنه هنا، وصل من دبي بهدف تغطية الانتخابات في البلاد. كان رؤساؤهم قد زرعوا في عقولهم أشياء كثيرة، مثل أننا جواسيس نتبع دولاً أمبريالية ليس لها من هم سوى ملاحقة دول العالم الثالث لإرجاعها إلى الحضيض، وكأن هذه الدول تعيش في نعيم دائم.

يتأمل أنس الرجل أمامه، يغوص في عينيه، كأنهما بلونهما الأحمر المغسول بالرمادي، مستلان من جسد آخر ومركبتان في جسد رجل، فهما عيني أنثى مدمنة لا رجل يملك أموالاً كثيرة جداً كما يشاع عنه، دون أن يعرف أحد تأكيد ذلك، ما يتعلق بالهوية الجنسية أو القدرة المالية.

على العموم فالرجل كما يكشف مظهره الخارجي، يجلس بشكل لا يفرض وجوده في المكان، فركنه ليس فيه سوى كنبة خشبية قديمة يمدُّ فيها رجليه شبه العاريتين المغطتين بالشعر الكثيف، في حين يظهر سرواله تحت العراقي القصير الذي لا يكاد يغطي سوى أعلى الركبة بقليل، ويعني هذا أن المناطق المحرمة محجوبة عن النظر، لهذا لن يكون لأنس أن يتبين الأجهزة التناسلية المتخفية تحت السروال، إلا أن يقدر الحجم الذي لا يعكس أي معلومة عن جنس الرجل، فليس ثمة زوائد واضحة للعيان، فقط تبدو منطقة الفخذين خالية من الشعر. إنه إلهام أنس وأفكاره التي تنشعل مرات بعوالم كهذه، يحاول أن يصل لنتيجة فيها، دون جدوى.

غادر الرجل السجادة ولم ينم إذن كما وعد، في حين كان صبية

الحكومة يتحركون في المكان كأشباح صباحية، وهم يمضغون علكات بطعم الفراولة ويتهامسون ثم يقهقهون بأصوات عالية، ليس لهم أدنى ذوق، يضرب كل منهم على مؤخرة رفيقه ثم يغادرون، وتدخل نساء محجبات يقودهن رجل فارع الطول بجلباب ناصع البياض، يسلم من بعيد على أبوبكر زهاوي مدير الفندق، صاحبه.. لا فرق.

يحرك زهاوي من بعيد أصبعه الوسطى لأعلى وهي إشارته المعتادة لرد التحية، دون أن يرفع رأسه مجدداً بعد أن أدام أنس النظر إليه، وهذا أشعره بالخجل فزهاوي خجول جداً إذا رأى من يريد أن يتفحص ملامحه أو أحس بمن يشكك في هويته كذكر، هو يعلم بهذا الأمر، لا يتعقد منه كثيراً لكنه لا ينشغل به بعد أن يدخل في باقي اليوم في تفاصيل العمل ومراجعة الحسابات والأموال ويُطوف على مخزن المواد الغذائية والخضروات ويطمئن على المطعم الكبير الذي يطل على الشارع العام وله باب داخلي يفتح على صالة الفندق الصغيرة التي تقود للصالة الكبيرة.

بالنسبة لأنس ورغم أنه مهندس وتقني، إلا أن عمله في محطة فضائية ومع صناع الأخبار جعله أشطر منهم كما يقول عن نفسه، ولهذا فقصة هذا السيد وهذا المكان كانت جلية بالنسبة لنا، وليس علينا أن نسأل من أين جاءت المعلومة المعينة أو كيف عرفها، كما يجب ألا نسأل أين حدود الخيال وأين هي الحقيقة! فأنس بارع مرات في تداخل الواقعي بالمتخيل وهذا يكسب قصصه أهمية حيث تشد من يسمع

لـه.

منـذ سـنوات وقـد اشـتهر الفنـدق المسـمى «كولـن ولسـون» والمكـون مـن خمسـة طوابـق فقـط، علـى أنـه قبلـة النـاس مـن كافـة الأهـواء والمهـن والقبائـل والأحـزاب السياسـية، وكسـب ذلك بفضـل سـمعته كمـكان تجـد فيـه مـا تريـد بغـض النظـر عـن فكـرة الحـرام والحـلال، فـكل أنـواع المرغـوب والممنـوع يتوافـر هنـا. فالـذي يبحـث عـن السـكون والهـدوء يجـده فـي غـرف تـكاد تكـون معزولـة عـن العالـم رغـم اتسـاخها واتسـاعها، والـذي يبحـث عـن الصخـب فسـوف يجـده فـي الصالـة الكبيـرة فـي الطابـق الخامـس والتـي تقـام فيهـا أحيانـاً أعـراس مصغـرة لأنـاس ممـن يطلـق عليهـم علية القـوم أو أعيـاد ميـلاد وحديثـاً ظهـرت حفـلات الطـلاق التـي بـدأت تغـزو البلـد، وفـي صالـة صغيـرة بجـوار الصالـة الكبيـرة تعقـد أحيانـاً صفقـات تجاريـة ومؤتمـرات سياسـية ومؤامـرات لمحـاولات اغتيـال بعضهـا ينجـح وبعضهـا يفشـل لشـخصيات مرموقـة مـن سياسـيين ورؤسـاء دول فـي الإقليـم. والفنـدق أيضـا مـكان للعاهـرات اللائـي يأتيـن فـي منتصـف الليـل ويغـادرن فـي الفجـر، ويشـرف زهـاوي علـى كل شـيء بنفسـه وبدقـة، فهـو يختـار هـؤلاء الفتيـات اللائـي يؤتـي بهـن مـن كافـة مناطـق البـلاد بـلا اسـتثناء، فالجامعـات التـي انتشـرت فـي العاصمـة مـع الفقـر المتسـع أصبحـت أفضـل مـكان لتفريـخ الدعـارة وهـذا مفهـوم لـكل الذيـن يرتـادون الفنـدق بعـد منتصـف الليـل ومنهـم دبلوماسـيون وسـفراء أجانـب وحـكام ولايـات وتجـار وأنـاس مـن كافـة أطيـاف المجتمـع والحـرف والمهـن، بـلا اسـتثناء أيضـا.

سماه بفندق «كولن ولسن» تأثرا بفكرة اللامنتمي التي ذاع صيتها في الستينات من القرن الماضي، كان وقتها أبوبكر زهاوي في مقتبل الشباب، ولم يكن له من هم في الحياة سوى أمرين، جمع المال بالعمل في تهريب البنقو من مزارع دارفور وأطراف تشاد إلى الخرطوم ومدن الشمال إلى حلفا، وبورتسودان شرقاً، ولاحقا صار يصدره لاريتريا لينقل إلى شرق آسيا.

أما الأمر الثاني فهوايته في القراءة، كان يقرأ بنهم دون أن تغيّر القراءة من طباعه أو مزاجه الشخصي، لاسيما في الصباح الباكر حيث أنه ومنذ تلك الأيام البعيدة أدمن سيجارته الصباحية التي يراها خير من الدنيا وما فيها، وعندها يتفرغ لشأن غير القراءة وهموم العمل التي باتت شغله الأكبر في السنوات الأخيرة، فالحياة صارت ضاغطة، جدا، لهذا فالحديث عن ثراء الرجل بدأ يتخلخل، والشائعات صارت كثيرة ما بين أن الرجل قد أفلس ويعيش مرحلة خروج الروح ومن يقول لا وألف لا ليس هذا صحيا البتة، فزهاوي هو ضلع من أضلاع القوة المركزية في هذا البلد، ودونه لسقط النظام وتغيرت مواقع كثيرة، والرجل عموماً وخلال عقود طويلة كوّن صداقات في المجتمع لا حد لها وصار معروفا جداً، وإن كان يحب العزلة وفرض سياج على أحواله وأخباره الشخصية، ما يجعله مثاراً للشائعات ولغزاً غير مفهوم تماما، ما بين هويته كمثقف ووجودي قديم أو رجل مسطول ومحشش، أو إداري محنك أو رجل أعمال أو سياسي أو جاسوس لرجال الأمن من

بلـدان خارجيـة أو كائـن مخنـث بـلا هويـة جنسـانية، وغيرهـا مـن الصفـات.

كان زهـاوي يـرى فـي كتـاب «اللامنتمـي» قيمـة أدبيـة كبيـرة وينظـر إليـه كدسـتور حيـاة، لكنـه لـم يفصـح بذلـك إلا لقلـة مقربـة مـن الأصدقـاء، وفـي أغلـب الأحيـان يحمـل نسـخة معـه يضعهـا إمـا تحـت الطاولـة بالصالـة أو فـي درج مكتبـه بالفنـدق أو سـيارته القديمـة ماركـة مرسـيدس التـي يسـافر بهـا لميناء بورتسـودان عبـر الطريـق البـري الجديـد الـذي أنشـأه زعيـم القاعـدة أسـامة بـن لادن أثنـاء إقامتـه فـي البـلاد قبـل أن يهـرب إلـى أفغانسـتان.

ومـن هنـا، خلـف هـذه المحبـة لهـذا الكتـاب «اللامنتمـي»، جـاء اسـم الفنـدق، الـذي أصبـح اليـوم عاديـاً ومألوفـاً جـداً، فـلا أحـد يقـف كثيـراً ليفكـر فـي المعنـى، بعـد أن صـار ينطـق بالاسـم كثيـراً فـي محيـط منطقـة وسـط العاصمـة مـن قبـل مرتـادي الفنـدق الذيـن يشـملون أيضـا فـي النهـار تجـار السـوق السـوداء للعملـة الأمريكيـة الـدولار، وسماسـرة العقـارات والسـيارات ولوطييـن مـن عجائـز يبحثـون عـن سـاعات مرحـة فـي تأمـل الشـباب الكورييـن والفلبينييـن والصينييـن مليحـي المحيا الذيـن ينـزل كثيـرون منهم بالفنـدق، بعـد اتسـاع تجـارة دول شـرق آسـيا فـي البـلاد ودخـول التقنيـات الجديـدة واسـتثمارات غيـر مفهومـة لعامـة النـاس.

يُمـصّ الرجـل الـذي ربمـا كان قد تجـاوز السـتين بقليل، السـيجارة مصـاً، ليتـرك شـفتيه تندسـان فـي فمـه، فـي حيـن كنـت أفكـر أنـا فـي غيابـي عـن البلـد كل هـذه السـنوات.. عشـرون عامـا ليسـت بالسـهلة علـى أيـة حـال. لكـن فـي ظـرف وجيـز بـدأت اسـترجع المعلومـات

والأماكن وأن أفهم التفاصيل الخفية وإن كان المشوار طويل جدا. تفاصيل الحياة في بلدي.
بدأت الكثير من القصص تستهويني كقصة هذا الفندق وصاحبه ولياليه العجيبة التي رأيت بعضها بنفسي خلال أيام وجيزة.. وكنت كلما أرى أمرا غريباً أو أسمع قصة جديدة مدهشة أو أشاهد مشهداً عجيباً أفهم أن هذا البلد تغير كثيراً جداً عن تلك اللحظة التي تركته فيها، لا شيء استقر على ما هو عليه، هناك شيء غامض يحرك المجريات والوقائع ويجعل الحياة لا تخضع للتفسير بسوى تأمل الفوضى والاستغراق في حب الذات كما يفعل السيد زهاوي، إنه نموذج كما قال أنس للإغواء الذي تفرضه الظروف حتى لو كان الإنسان متحكماً في كل شيء.
بالنسبة لي، نعم نسيت أشياء كثيرة جدا ورأيت غرائبَ، غير أن ذاكرة الطفولة والصبي وبعض من شبابي ما زالت حاضرة، كأنني لم أتحرك قيد أنملة عن تلك الأيام البعيدة، فغيابي لم ينسيني أنني ابن هذا البلد، أحمل سحنته وأفهم تاريخه وأبعاده، فمهما سافرت وتغربت فقد ظللت معلقاً به حتى لو أني كابرت مع نفسي، ومهما حدث لي من ذكريات ووقائع محزنة بسبب أقرب الناس إليّ فقد ظل هناك ما يجذبني لأرضي ومسقط رأسي، مغنطيس غريب لا يمكن التكهن بماهيته وأين يقبع بالضبط، في جسدي أم خارجه أو في مكان بعيد وغير مكتشف من هذا الكون المليء بالألغاز.
قد تمر أيام وربما سنين يفرغ رأسي من الذكريات وأكون قد

عشت أو انغمست في هوي ذاتي، كعادتي، لكن مرة واحدة ينفضح شيء ما في دماغي لأجد نفسي أقفز فجأة لأقول لنفسي. «ياه.. يا مرجان.. أين أنت بالضبط، هل نسيت بلدك؟»..

لأنس خبرة جيدة بالبنقو، يكلمك كيف يكون لون العينين لمن يدمنها طويلا، ويخبرك عن أمور أخرى عن هذه السيجارة المرعبة كما يسميها، كيف أنه بمجرد أن تجر نفساً أولاً منها حتى تشعر بأن أعصابك ليست ملكك وأنك كائن آخر، له بدلا عن خلاياه النابضة بالحياة أخرى مصنوعة من مادة لادئنية مدهشة، هي التي تجعل الإنسان يسترخي ويشرد في عالم مفقود لا ينتمي لكآبة الأرض.

طبعا خبراته هذه نتائج معرفة لصيقة بالسودانيين، ولهذا كان يقول لي أحياناً.. أنني ربما في بعض المرات لا أشبه هؤلاء الناس.. يخاطبني ونحن نغادر المقهى الليلي:

«إن رأسك هذا من فولاذ»

لم يكن لي من فكرة كاملة عما يقصده، ربما أفهم المعنى العام ولكن لا أفكر فيه كثيراً أو انشعل به، كعادتي.

نمضي سويا يكون قد بصق على الأرض طويلاً، ونحن نسلك الطريق عائدين كل إلى مخدعه قبل أن يأتي يوم جديد، وفي الطريق يخبرني أنه يُكنُّ للسودانيين احتراماً عظيماً، يتمنى لو أنه وُلِد سودانياً، حتى لو أن تلك المرأة التي أصبحت سيدة متزوجة الآن - دون أن يفضح مزيداً عنها - كانت هي بالتحديد، سبباً في ألمه وجرح حياته الذي ربما لن يندمل، ويخبرني

هامساً:
«شخصيتي الحالية بكل ما فيها من تناقضات هي نتاج تلك الهزيمة النفسية!»
يصمت قليلاً ويقول لي:
«هل تصدقني؟»
أجيبه بأن أحرك وجهي.. لكنه يريدني أن أتكلم.. ولا أنطق بأي كلمة.. كعادتي، ثم ينسى الأمر إلى أن يعيده مرة أخرى بعد أن يكون قد نسي أنه قاله من قبل.

٥

قبل أن ينهض زهاوي لتصريف أموره اليومية يستأذن أنس ليدخل الحمام المنحشر في زاوية من صالة الفندق الكبيرة قريباً من الباب المؤدي للمطعم، لكنه سرعان ما يخرج متأففاً غير قادر على احتمال العفونة وتدفق السوائل المرهقة للعينين في الأرضية وكون السايفون معطلاً، وغيرها من الشكاوى الموجهة للسيد المدير. يسمعها غير مبالٍ، ثم بطريقته في الردود المقتصبة اللوغارثيمية يقول له:

«غدا سيكون كل شيء أفضل من اليوم..»

ويعقب واقفاً:

«هذا بلدنا ألفناه على هذا الشكل.. أصبر علينا يا ولدي»

وإذا كان أنس من المشاغبين كما أعرفه، فقد داعب زهاوي، وربما كان يستقصد ذلك:

«أريد واحدة مساءً»

فهمت أنها السيجارة العجيبة، وتذكرت أن أنس لابد أنه على علم بها من خلال تجربة وليس مجرد كلام كما كان يثرثر قبل قليل، فأنا أعرفه جيداً طوال السنوات التي مضت لا يمكن أن يحدثك عن شيء إلا ويكون له خبرة شخصية ومباشرة،

ليس كأولئك الذين يتبجحون بقدرات خرافية وهائلة في أمور كثيرة وهم مجرد ثرثارون لا غير. إذاً فهو مجرب، فمجتمعات السودانيين في الخارج والمهجر هي امتداد طبيعي لهذا الوطن المنكوب.. «وكل المنتجات الوطنية الحلال والحرام تصل إلى هناك».. كما يقول أنس ضاحكاً بعد أن انتهت لغة الإشارة بينه والعجوز.

مدير الفندق ليس غبياً على أية حال، فقد هزّ رأسه دليلاً على الموافقة، وهو مرهق جداً كما يتضح من وجهه الشاحب في ساعات مبكرة من اليوم.

قبل ساعة أخبرنا أنه ينتظر أذان الفجر ليصليه حاضراً، ويبدو أنه نسي الأمر أو تغافله، فهذه السيجارة تنسيك كل شيء، كما يبدو، فالشمس الآن ارتفعت وشرع الضوء يتسلل إلى الفندق قوياً يكشف عن الملامح الخفية من آثار الليل في هذا المكان الذي بدا لي مسلياً وغريباً في الوقت نفسه.

مطّ زهاوي شفتيه للأمام، ثم رمي بنهاية السيجارة على الأرضية وداسها بقوة، قبل أن يرخي رأسه على الكنبة تحديداً على مخدة قطنية متسخة، يكون قد تراجع عن فكرة قيامه بعد أن نهض للواجب اليومي. ثم يرد على أنس بهدوء:

«أوكي.. الحساب..»

قال ذلك وهو يمدّ يده اليمنى ليبدو كشحاذ محترف في صورة لا تشبه موقفه المفترض كرجل صاحب أموال طائلة، في حين أخرج أنس رزمة جنيهات سودانية من جيبه، من أين جاء بها؟.. لا علم لي!!.. فنحن لم نستبدل سوى خمسمائة دولار أمريكي

بالعملة المحلية وذلك عند كاونتر الفندق ساعة وصولنا، دفعنا منها للتاكسي المتهالك والباقي كان معي حيث أتولى دفع متطلبات الفريق.. ولكن لا مفاجآت فأنس يفعل أي شيء غير متوقع.. أعرفه جيداً.

حرّك زهاوي أصبعه السبابة من اليد اليسرى بعد أن سحبها من وراء رقبته، يعلن عن رفضه للجنيهات، وقال مغمض العينين، وقليل من التمباك قد تسرب من فمه للخارج:

«دولار، عملة صعبة.. فقط..»

أدخل أنس رزمة الجنيهات في جيبه وأخرج رزمة بديلة، سحب منها مائة دولار رمى بها للرجل ليدخلها سريعاً في جيبه وإن كان قد تحسسها بطرف أصابعه ليتأكد إن كانت مزورة أم لا، فأغلبهم يفعلون هذا. ويبدو أن الدولارات ألهبت حماسه فقد نهض وإن كان بصعوبة من على الكنبة إلى السجادة المفروشة على الأرض، وبدلا من أن يصلي أو ينشط كما توقعت فقد تدلى قليلاً إلى الوراء برأسه، إلى أن وضعه على السجادة ليشرع في النوم، يبدو أنه موعود بنوم عميق جداً.

في تلك اللحظات، كنت قد رفعت رأسي من على الكرسي البلاستيكي في البهو الكبير حيث أجلس مراقباً ما يجرى أمامي، ونظرت باتجاه نهاية الممر أبحث عن زميلتنا في الفريق، سوسن، أين هي، فقد اختفت؟.. هل ذهبت للحمام هي الأخرى كما فعل أنس قبل قليل؟ فوضع الحمامات في الغرف في الطوابق العليا، كان مقرفاً في ظل انقطاع المياه منذ الليل، والحال ليس أفضل في الطابق الأرضي كما أبدى

أنـس امتعاضـاً.
لـم أطـل التفكيـر فقـد رأيتهـا ملتصقـة بأحـد الأعمـدة الدائريـة، وهـي تتكلـم بصـوت هامـس مـع سـيدة تلبـس ثوبـاً سـودانياً بألـوان الشـمس، البرتقالـي والأصفـر والأحمـر، اسـتطعت مـن قيـاس مؤخرتهـا أن أفهـم أنهـا الصيدلانيـة ميرنـا، مـاذا تقـولان.. اللـه أعلـم.. وفكـرت فـي سـبب مجيئهـا هنـا، فـي هـذا الصبـاح المبكـر، وكيـف عرفـت أننـا نقيـم بهـذا الفنـدق، وهـل جـاءت للهـدف الـذي كانـت قـد انتوتـه منـذ أمـس؟! كنـت أقـول ذلـك فـي حيـن كان بالـي مشـعولاً بالتفكيـر فـي أمـر آخـر.. فالدمـاغ البشـري يعمـل بطريقـة لا يمكـن السـيطرة عليهـا أو فهمهـا.
كان مـا يشـغلني أننـي مهمـا كنـت ابـن هـذا البلـد، فالعقديـن اللذيـن غبتهمـا كانـا كافييـن ليجعلانـي أبـدو كمـا لـو أننـي غريـب فعـلاً، والنـاس هنـا أذكيـاء رغـم كل ضيـق، فهـم قـادرون علـى الفـرز بيـن المواطـن الأصيـل والغريـب ابـن البلـد، لا أعـرف بالضبـط مـا هـي القاعـدة التـي يسـتندون عليهـا لكنهـم فـي النهايـة يعرفـون سـواء تعلـق الأمـر بكبـار السـن أو حتـى الأطفـال الشـحاذين، الذيـن يتشـبث الواحـد منهـم بطـرق قميصـك ولـن يتـركك إلا أن تدفـع لـه مـالاً، ولـن يرضـى بالقليـل. ولـه أن يخاطبـك بعـدد مـن اللهجـات الشـامية والمصريـة والخليجيـة مـرة واحـدة وبمهـارة فائقـة..
يضحك أنس، ويقول:
«هي العولمة والفضائيات خربت العالم..»
ربمـا يتـم التعـرف عليـك مـن خـلال شـكلك الخارجـي وملابسـك

المهندمة أو من رائحة عطرك أو لحيتك الحليقة بشكل جيد، أو أنك بلا شارب، والاحتفاظ بالشوارب هنا أمر مقدس، فهي علامة التفريق بين الرجل والأنثى والرجل وما دون الرجل، مهما يكن فلديهم حس عام وسريع في هذه الأمور.

سرقت سوسن الأضواء عن أي فكرة أخرى يمكن أن تشغلني، أنظر باتجاه جسدها الذي تقف به أمامي الآن مسبوكاً بدقة وقوام مثير، لم أفكر فيها ذات يوم ككائن شبق إلا الآن، ولا أعلم السبب! رغم أن هناك آخريات في الفضائية شغلن بالي لشهور طويلة. ربما عامل المكان له أثر فمرات ساعة تضيق الخيارات يكون لكَ الخيار الذي أمامك هو الأفضل والأجمل. هاهي إذن ميرنا.. فما الذي جاء بها هنا؟ ..

أكرر السؤال مع نفسي، ولا أفكر في سوى إجابة واحدة، هذه الشهوانية العجيبة هي التي تقلق البشر بغض النظر عن مواقعهم وأمنياتهم وقصص نجاحهم. ألم يكن أنس يكرر ذلك، وهو يكلمني دائما عن حبه المقتول والضائع، خسارته.

٦

نادانـي باسـمي رجـل يرتـدي بدلـة داكنـة اللـون، لـون بدنـه لا يـكاد يتميـز عـن بدلتـه، فانسـحبت نحـوه. هـل يعرفنـي؟! لـم أكـن أدري! قلـت إنهـا واحـدة مـن حيـل البلـد الجديـدة التـي حذرنـي منهـا بعـض الزمـلاء قبـل السـفر، «ثمـة مـن يدعـي معرفتـك ويُـزج بـك فـي مصائـر مجهولـة فكـن حـذرا».

صافحنـي صاحـب البدلـة السـوداء بقـوة وكـرر السـلام بعـد أن احتضننـي، قـال لـي:

«الوالد حزين لحالك ويسأل عنك»

لم أعلق، استرسل يقول:

«أمك تنتظرك بفارغ الصبر»

هنـا عرفـت أنـه مُخطـيء أو كـذّاب، فأمـي ماتـت منـذ سـبع سـنوات ولـم أحضـر وفاتهـا بـل ربمـا لـم أتأثـر بهـذا الحـدث أساسـاً، ولِمـا حـدث ذلـك، ليـس لـي مـن مبـررات واضحـة الآن سـوى تجربتـي القاسـية والغريبـة فـي الحيـاة.

قـد يكـون صعبـا تخيـل أن أحدهـم تمـوت أمـه ولا يهتـم بذلـك. لكنـه حـدث، كمـا أشـياء كثيـرة أخـرى فـي حياتـي حدثـت، ليـس

لـي مـن مجـال لأفندهـا وأفرزهـا..
ما هو الحقيقي منها وما هو المزيف؟!
وهل لي من منطق أم لا؟!.
بعـد أسـبوع سـوف اكتشـف أن أمـي علـى قيـد الحيـاة. لـم تكـن تلـك سـوى حيلـة إذن، ألـم أقـل أن البلـد يتغيـر؟! النـاس تتلـون، كل شـيء يصبـح غريبـاً وغيـر مفهـوم، أقـرب النـاس إليـك وهـم والـداك لا تسـتطيع أن تتنبـأ بتصرفاتهـم أو مـاذا يكنـون لـك بالضبـط، فمـا بالـك بالآخريـن؟!
هـذه الأسـابيع الثلاثـة فعـلاً كانـت سـاعات قاسـية فـي جحيـم أرضـي، فـي أرض الخـراب والبـور والدمـار الـذي سـوف يعصـف بـي لكننـي سـأصمد لسـت أنـا الـذي تقـرر بـه المشـاعر الكاذبـة، سـأكون قويـاً إلـى النهايـة، كان ذلـك عهـد اتخذتـه مـع نفسـي، فـإذا قاومـت كل السـنين السـابقة، عشـرين عامـاً فلمـاذا سـوف أنهـزم الآن فـي هـذه الأيـام القليلـة، سـأعود إلـى حيـث كنـت وسـأحيا مـع حياتـي التـي أعرفهـا دون أدنـى ضجيـج، لا أريـده هـذا الوطـن ولا هـؤلاء الأهـل، كنـت أكلـم نفسـي.
عـرض عليّ الرجـل الداكـن، خدمـات كثيـرة أولهـا أن يأخذنـي فـي سـيارة إلـى حيـث يسـكن أبـي وأمـي الآن، وحتـى تلـك اللحظـة كان كاذبـاً بتقديـري بخصـوص أمـي، ولـم أكـن أظـن أن أمـي، هـي مـن كان يكـذب، مـن دبـر فكـرة موتهـا لهـدف ليـس مفهومـا لـي.
وظللـت أتعامـل مـع الرجـل علـى أنـه يريـد ابتـزازي ليأخـذ مـالاً بـأي شـكل كان، وقـررت ألا أدفـع مطلقـاً، وسـمعته يخبرنـي انـه عضـو فـي جمعيـة لأول مـرة اسـمع بنوعيتهـا، قـال لـي إن اسـمها «بـر

الوالديـن والأرحـام»، وكلمنـي ونحـن جالسين علـى طـرف الكنبـة القديمـة المتهالكـة المخصصـة للزهـاوي:
«إن الديـن يحسـنا علـى أن نكـون صادقيـن باتجـاه أنفسـنا وأن الحيـاة قصيـرة»
ثـم تنفـس عميقـاً، وأخـرج سيجارة مـن النـوع المعهـود، الرائحـة نفسـها لا تخطـئ، قـال لـي:
«هل تريد واحدة؟»
قلت له:
«آسف لا رغبة لي..»
لـم يهتـم بتكـرار الدعـوة أو توضيـح أمـور كنـت قـد تخيلتهـا فـي ذهنـي أن يشـرح لـي كأنـس مثـلا مزايـا هـذا النـوع مـن السـجائر، وواصـل تلقينـه درسـا لـي:
«عليك أن تتأكـد مـن حقيقـة نفسك لابـد أن تتطهـر كثيـرا جـدا لأن قلبك وسـخ»
كنـت أسـمع لقلـة أدبـه وبجحاتـه، مـع دخانـه الـذي غطـى وجهـي، ولأننـي «كـول مـان» كمـا يقـول أنـس فقـد آثـرت أن أصمـت وأكتفـى بسـماع هـذه الفيلـم الـذي أنـا جـزء منـه، وأجهـل كل شـيء عنـه تقريبـاً، حقيقـة موقـف هـذا الرجـل الـذي يدعـي أنـه يعـرف تفاصيـل حياتـي وأنـه أتـى لكـي يجعلنـي أعيـش حيـاة سـعيدة، بعيـداً عـن ألمـي المسـتمر.
قال لي:
«لن تدفع أي شيء، المهم أن يرضى عنك الله»
تحملت الموقف، وسألته ببرود:

«ولكن أي مصلحة لكم أنتم. لما تدفعون المال لأجل ذلك؟»
ابتسم يظهر أسنانا صفراء ملونة كأنه لا يجيد السواك، رد عليّ بانفعال لأول مرة:
«كأنك غبي.. لا أعرف كيف يروجون عنك أنك ذكي؟!»
واصل:
«نحن لا ندفع أي شيء.. أبوك هو الذي يدفع بالأحرى دفع مقدماً.. وإن لم يكن هو فهناك أخيار يدفعون لأجل هذه الأعمال الجليلة.. هذا البلد فيه ما شاء الله من صناع الخير»
لم أكن راغباً في الاستمرار بسماع هذه التشويش الذي بدأ يصيبني بالصداع، ولم أستأذنه فقد انسحبت من أمامه لأنني كنت مشغولاً بالبحث عن سوسن وأنس فقد غابا عني فجأة مع تهويمات هذا الرجل، والذي يبدو أنه كان يحَبكُ خطةً ما ليشغلني، في حين يقوم آخرون بتدبير أمر ما يتعلق برفاقي. لكن أنس ظهر، وقد كان مرتعباً، تغيرت ملامحه، يبدو مرتبكاً وربما خائفاً، وصرخ قائلاً:
«لا أعرف ما الذي يجري.. لقد أخذوا سوسن!»
«من.. من أخذها؟!»
«لا أعرف.. هذه السيدة الـ....»
«ميرنا الصيدلانية»
«نعم هي ومعها ثلاثة رجال يرتدون بدلات كصاحبك هذا.. بدلات بنصف أكمام»

٧

كانت الشمس قد كشفت عن عورة النهار وقبحه في الخارج، الشوارع الوسخة والناس وهم يسيرون؛ أغلبهم بملابس رثة وأعينهم كالحة، ونساء يسابقن المجهول بأثواب انحسرت عن رؤوسهن، وبائعون يصرخون بلا هوادة وسمسارون يرتدون جلابيب بيض تظهر من وراء جيوبها الكبيرة رزم العملات الأجنبية المزورة، وحلاقون يحملون مرايا متحركة يبحثون عن زبائن. أشكال من الصور والمشاهد التي لا تحصى ولا يمكن لي أن استحضرها كلها، إلا أن أجلس وأدون كل شيء، وسأكون عاجزاً سوف أنسى أشياء كثيرة مهمة.

في أول ذلك النهار السيء، الذي استقبلنا بهذه الطريقة غير المتوقعة في بلد لا يركن للعادي، كان لنا أن ننشغل بأمر سوسن دون أن نفهم ما الذي يجري بالضبط، وأين ذهبت. لا أحد يملك معلومة وليس من وراء أي حديث سوى الشائعات، الكل يروج للزيف، الصحف والتلفزيونات والناس في الشوارع. لكن المصريين لن يسكتوا في وسائل إعلامهم لن يتركوا سوسن فساعة يتعلق الأمر بمواطن مصري سوف يهبون بقوة لذلك

وبجسارة قد لا تملكها حكومتنا، فكم من السودانيين ماتوا في ديار الغربة في معتقلات وفي ظروف غير معروفة، وليس من دولة ولا حكومة تهتم، فكرنا بذلك أنا وأنس، ونحن نترقب احتمالات الغد.

نظرت حولي، قلت إن الرجل صاحب البدلة كان حيلة لشغلي حتى يتمكنوا من أخذ سوسن والهرب بها، وخاب ظني فقد كان صاحبنا واقفاً ينتظر مني أن أصعد إلى السيارة ماركة تويوتا بابين من كل جهة، لم يترك لي فرصة، كان قد جرني بقوة ولكن بلطف، وأخذ أنس باليد الأخرى، وهو يؤكد بصوت مرتفع:

«لن تتأخرا، الطريق ليست بعيدة ساعات وستعودان لعملكما»

مورست معنا القوة اللطيفة أذن.. طبعا.. الآن نحن في سيارة معتقلين على ما أظن.. إلى أين تسير بنا لا نعرف!!، وباسم هذه الجمعية الغريبة المضمون في بلد لم يعد فيه من احترام لإنسان، فمن أين جاء هؤلاء الذين يدعون حماية حقوق الوالدين!..

كانت الخرطوم تبدو لي وقد خرجت من قرون أوسطية حالها يشبه لعنة لا يمكن وصفها، مدينة شاحبة تكاد تنوء بأوجاعها، زلات البشر، قيئهم وصديدهم، القذارة في كل مكان، هل تم اختراع هذه المدينة لكل تكون عنواناً لكل هذا القبح والدمار النفسي الذي يمكن أن يتعرض له الكائن؟ لا احترام لقانون ولا إنسان يسير بقاعدة، الكل يسابق مجهولاً وبسخف. السيارات لا تعرف النظام وإشارات المرور ذات الأرقام الديجتال والتي لم

أر مثلها في أي مكان في العالم، هي موجودة هنا ولكن لا أحد يعترف بها، يمكن لسائق أن يعبر يميناً أو يساراً عنها، والمارة لا يتركون للسيارات أن تمشي في شارعها غير المعد أصلاً وغير الصالح بحفره اللامتناهية. وعربات تجرها الحمير تسرع لأخذ نصيبها من إشارة المرور قبل عربات الركشات الصغيرة ذات الأرجل الثلاثية، متى استيقظ كل هؤلاء هل كانوا نائمين على قارعة الطريق بانتظار الفجر؟!

عاين الرجل الذي كان يقود السيارة للوراء في المرآة أمامه، يتأمل وضعنا فقد كان رجلان اخران يجلسان عند البوابتين الخلفيتين، بحيث تم وضعنا أنا وأنس بطريقة ضاغطة وسطهما وبحيث لا يُسمح لنا بسوى التنفس وراء رائحة عطرهما التي لم أطقها.

قال السائق صاحب البدلة مكررا المعاينة للوراء، وهو يقود السيارة بجنون:

«هل أعجبتكما البلد.. الحمد لله نعيش في نعمة يحسدنا عليها العالم.. يروجون لنا كبلد إرهابي ويحاصروننا اقتصادياً.. لكننا رغم ذلك طورنا بأنفسنا هذه البنايات وهذه الجسور.. وهذه الساحات.. وهذه..»

كان يشير يميناً ويساراً، يتحدث عن جسر يمكن إنجازه في أي بلد محترم في غضون يومين، وعن ساحة ليس فيها من شجر ولا لون أخضر، شرح أنها متنفس لأهل المدينة في الليل وقطع وعداً بأن يأتي بنا هنا في الليالي المقبلة أن توفر لنا وقت.. كان يثرثر.. دخل في موضوع آخر وثالث..

كنت أسمع وأراقب وعقلي معطلٌ عن العمل.. في حين كان أنس خائفاً. أعرفه جبان جداً في مثل هذه الظروف، فهو رغم سخريته من العالم ومن نفسه أحياناً، يمكن أن يشعر بالهلع لأبسط الأمور، الآن تصطك أسنانه رغم الحر الصباحي الذي نشعر به برغم أن مكيف السيارة يعمل وبصوت مرتفع لكن لا هواء بارد يصل إلينا.

تبادر لذهني سؤال وسألته على الفور. كان أمر والدي قد بدأ يتحرك في دماغي، ما بين تفكيري أن الأمر ، أي ما أمر به الآن، حيلة أم حقيقة:

«أبي.. هل هو بخير ؟!»

ضحك السائق بطريقة غير لائقة، قال لي:

«الآن فقط تسأل عنه أيها الضلالي!»

لا أعرف إن كان يمزح أم يتكلم جاداً، ولم أحفل بتشريح الموقف، ولم يرد عليّ.. استمر يقود السيارة وهو يغني نشيداً وطنياً بصوت نشاز، عن الجدود الذي أوصوا بالوطن والتراب الغالي الذي لا يقدر بثمن.

نظر نحوي مجدداً في المرآة، قال:

«أمثالكم من ضيعوا الوطن.. علمكم وأنفق عليكم في طفولتكم وشبابكم.. ثم تركتوه ومضيتم لتخدموا بلدان أخرى.. ما هكذا البر بالأوطان!»

ثم قال مقاطعاً نفسه:

«الذي لا يبر بوالديه لا يبر بوطنه..»

يتحدث عن هذا المسمى الوطن، وكان بودي أن أدخل إلى ثنايا

خلايا عقله في رأسه الكبيرة لأفهم على الأقل، ما هذا الذي يتكلم عنه بالضبط، كيف يفهم هذا الشيء الغامض، أم أنه مجرد مهرطق، وما أكثرهم، ففي كل يوم سوف يتضح لنا أن ما مضى كان أفضل وأن الأيام المقبلة ستكون أسوأ بكثير، هذه هي القاعدة هنا.

سألته مجدداً:

«كيف عرفتم بخبري أنني هنا وأنني يجب أن أزور والدي؟»

بدا جاداً هذه المرة، لكنه رد باقتضاب:

«المهم النتائج.. الأسئلة ليست مهمة. هل أنت سعيد الآن أم لا؟.. لولا نحن لا أظنك سوف تعرف أين يقيمان؟ وربما لن تفكر فيهما أصلا!!.. قل لي متى أخر مرة كلمت والدك؟.. طبعا أمك ميتة بالنسبة لك..»

بدا أنس مستغرباً وهو يسمع لذلك، كأنه أمام فيلم خيالي.. أو رواية غير واقعية.. هل يصدق ما يسمع يا ترى، أم أنه يُقدِّر أن ذلك مجرد خداع يمارسه هؤلاء الناس علينا، فالمتاعب بدأت منذ المطار، منذ أن كنا في السماء ونحن نسمع أخباراً غير سارة عن الزج بعشرات السياسيين في المعتقلات من الرافضين لقيام الانتخابات والمطالبين بتسوية وطنية يقوم فيها الجميع بالجلوس حول طاولة واحدة وتشكيل حكومة متعددة الأطراف، ولم يكن لي قناعة بما أسمع أبداً.. من معرفتي بالسياسة في هذا البلد لا طرف له قيمة ولا مصداقية، كما أن الحكومة أساساً لا تريد لسواها أن يجلس على الطاولات لتعترف به.

كانت القناة التلفزيونية التي نعمل بها تبث نشرة الأخبار على الشاشة التي أمامي في مقعد الطائرة، الأخبار غير مبشرة أبدا. مقتل العشرات من الجنود أيضا في كمين نصبه المتمردون في أحد القرى الجبلية. ولكن كيف أعلنت الحكومة ذلك؟! يبدو الأمر المنطقي إنهم لا يعترفون بالهزائم عادة، غير أن التبرير واضح تماما انها الانتخابات، يريد الحزب الحاكم أن يستجر العاطفة العامة، يرد أن يثبت أن بقائه واجب لأجل متابعة حربه بلا هوادة ضد من يطلق عليهم مجرمين نهبوا خيرات المناطق البعيدة عن الوسط، هؤلاء المتمردون «الذين لا ضمير لهم» كما يصفهم رجل كان يتحدث من الخرطوم لإحدى الفضائيات، ويكرر أن: «ما حدث اليوم أكبر دليل على أن دعوات الحوار تتبدد.. هم غير راغبين البتة في أي تفاوض يقود هذا البلد للسلام مطلقا.. إنهم يتبعون ما تمليه عليهم الدول الكافرة التي تمولهم..»

كانت تلك الأخبار تشير لأمر واحد، الاضطراب الذي يعيش فيه البلد، غير أنه لم يكن لي ولا لأنس أو سوسن أن ندرك أن الأرض لها لغة أخرى، فمجرد أن نزلنا في المطار كانت الخبرة السماعية تتحول إلى تطبيق عملي في انعكاس يتجلى مباشر علينا، وكان علينا أن نبدأ في تجريب هذه اللعبة المثيرة والمملة ومهما غضبنا أو حزنا أو أبدينا أي مشاعر من أي نوع كانت، فعلينا أن نحذف التكهن بما سيحدث بعدها، هنا «لا تدري نفس ماذا تكسب غدا!»، لا قانون ولا توقعات.

بث ثانٍ
الروح المنهوبة

١

تبقى لي ليس كثيراً من الزمن في هذا العالم.. وككل الناس رغم إحساسي بالنهاية لا أعلم بالضبط متى سأغادر إلى عالمي الثاني، وهو مكان غامض بالنسبة لي، لا أعلم بالضبط إن كنت اعتقد بوجوده أم لا.. ربما لو عدت للوراء.. سأطلب من بعض الأصدقاء والناس الذين أحببتهم إلا يلومونني على اخفاقاتي وتعاستي وظنوني..

كنت أرغب أن أكون إنساناً صالحاً ورائعاً.. لكن للحياة تصاريفها، ولابد أن وراء كل خطأ عذر ممكن، لا أدري هل أن لأخطائي من أعذار أم لا؟! مهما يكن فليس الأمر بالمهم بالنسبة لي.. لأن ما جرى لا يمكن تعديله بعد فوات الأوان، فالحكاية يبدو أنها قد اكتملت حتى الصور الممزقة باتت ظاهرة الآن للعيان، قد أكون أغفلت أشياء واستفضت في أشياء أخرى.. أدرك أن المهم قد لا يكون مهما في بعض الأحيان،

والعكس صحيح.
حدث ما حدث معي خلال أربعين سنة تقريباً، هو عمري إلى الآن، إلى هذه اللحظة التي كنت أكلم فيها إميلدا، التي لا تعلم مثلي إن كنت سأكمل عامي هذا أم لا، فأنا مصاب بداء عضال، ليس من سبب يجعلك تشعر بأن الموت قريب جداً سوى هذه الأمراض العجيبة، التي هي سمة عصرنا هذا. لا أحد يعرف أسبابها بالضبط من أين تنبت فجأة كرؤوس الشياطين، كما لا أحد يعرف كيف يمكن التخلص منها بشكل نهائي، قلة هي التي تشفى منها وبمعجزات إلهية في الغالب.. بالنسبة لي لا يمكنني التكهن بأي شيء رغم أن طبيبي الهندي، الهندوسي الديانة، طمأنني بأن هناك معجزة تنتظرني.
كانت إميلدا حاملاً في شهرها الخامس، يعني احتمالٌ كبير أن تضع طفلها، الذي تقول إنه ابني، خلال أشهر قليلة، وإذا قدر لي أن أعيش فسوف أحقق واحداً من أحلامي التي عجزت عنها طوال حياتي الماضية بأن احتفظ بأحد أولادي إلى جواري ولو لفترة وجيزة إلى أن ترتفع روحي إلى السماء، لا أعلم إن كان ستمضي إلى هناك أم تهوي إلى الأرض السابعة، في سقر.
الابتعاد عمن أحبهم، أولادي تحديداً.. أو ولدي الوحيد في هذا العالم، هذا جزء من أزمتي مع الحياة، لكن ليس هذا كل شيء، لا يروي كل مأساتي الحقيقة، لماذا أنا حزين للغاية، ومرهق، ومستاء؟!، ليس بسبب المرض فحسب، بل سجل وجودي المليء بالترهات والأحلام البائدة والإزعاجات المتكررة، وجنوني وطيشي وعذاباتي.

إمليدا فتاة هادئة ولطيفة تنحدر من أصول تايلندية، هي في السادسة والثلاثين من عمرها، يعني أصغر مني بأربع سنوات، وهي أيضا تشبهني كونها مقطوعة من شجرة، لا أهل لها ولا أحد يمكن أن ترجع إليه في هذه الدنيا سواي كما تقول لي وتكرر دائما. وإذا كنا متشابهين إلا أن لكل منا سببه، أنا ابتعدت عن بلدي وأهلي منذ سنوات طويلة وعندما أتيحت لي فرصة أن أزور موطني بعد غياب عشرين عاما لم أقم سوى ثلاثة أسابيع، فقد واجهت ظروفاً صعبة وأحداث لم أتوقعها أبداً، ما أفضي بي إلى قرار نهائي، أنني لن أعود إلى هناك مهما كان من سبب أو رجاء.

وإذا سألتموني أما من قريب لك؟ فالإجابة نعم لي أبي وأمي التي ماتت ثم ظهرت حية لاكتشف أن ثمة خدعة ما، هما الآن على قيد الحياة لكن علاقتي بهما انقطعت تماما خاصة بعد الزيارة الأخيرة والنهائية كما يبدو لي، فهاهو كل منا مضى في سبيله، وهذه النهاية الحزينة هي بعض من المأساة العميقة في عالمي، والتي بدأت قبل سنوات بعيدة يوم تسرب الشك لقلبي عن طبيعة هذ العلاقة التي تربطني بأبي أولاً ومن ثم أمي، هذا التفكير الذي انتهى بتهشيم الماضي وجعله هباءً منثوراً، ومن ثم المُضي إلى أن أكون وحيداً في حياتي لا رفيق لدربي سوى ذاتي التي باتت غريبة وعسيرة على الفهم.

لكن إميلدا لم تخاصم أباها ولا أمها، إنما كان تسونامي قوي مدمر هو الذي أخذ عائلتها بل كل قريتها، في شواطيء خولاك تلك البلدة التايلندية نهاية سنة ٢٠٠٤، مع ذلك الحدث المدمر،

راح آلاف الناس في ومضة عين بعد أن واجهوا الطبيعة بكل عنفها وعنفوانها. لحسن حظ إميلدا أنها كانت في العاصمة بانكوك، تعمل في أحد الفنادق بعد عامين من تخرجها من كلية السياحة والفندقة، وجاءها الخبر صاعقة جعلتها ترفض البقاء بعد ذلك في بلدها لتهاجر إلى الخليج العربي في الوظيفة ذاتها.

ربما تبدأ قصتي في اليوم الذي عدت فيه إلى المدينة الواقعة عند ملتقى النهرين، أقود فريقاً تلفزيونياً لتغطية الانتخابات التي تقام في بلدي، لصالح المحطة الفضائية الإخبارية التي أعمل محرراً فيها منذ خمس سنوات.

لا أعرف سبب اختياري بالضبط، هل لأنني سوداني ما يفترض قدرتي على إدراك موقع الحدث بشكل جيد، أم لسبب آخر؟ رغم أنه من ناحية واقعية، لست ذلك الذي يتمتع بالخبرة الكافية عن هذا البلد، باعتبار السنوات الطويلة التي غبتها عنه، فعقدين زمن طويل، تغيرت فيه أشياء كثيرة جداً، بعضها كنت أفهمه من خلال متابعتي شبه اليومية لأخبار موطني، فيما البعض الآخر لا يمكنني أن أدعيّ معرفتي به، ومع وجودي على الأرض أو الميدان بلغة المعارك والحروب التي تم استلافها لتوصيف مواقع الأحداث بغض النظر عن طبيعتها، اكتشفت أن بلداً جديداً أمامي، يختلف تماما عن ذلك الذي تركته يوم سافرت في شبابي لإكمال دراستي في الخارج.

٢

أنا إنسان لحد كبير، إذا كنت قادراً على تشريح نفسي، براغماتي نوعا ما، أعيش حياتي دون هدف أو غاية محددة، هذه الخاصية التي فقدتها منذ لحظة مجهولة في وجودي.
هل يكون الإنسان قادراً على فهم نفسه بالضبط؟
لا اعتقد ذلك، فتاريخ الذات شيء ملغز وغامض، أسهل أن يفهمك الآخرون من أن تعرف بدقة من تكون، فالناس تُكّون عنك فكرة على الأقل، لكن أي فكرة تحملها – أنت - حول نفسك حول ذاتك؟.. لا تدري!!
أحيانا أقول إن لغرابتي هذه مبررات أو يمكن إخضاعها لقانون المنطق الذي تفرضه الحياة، ومرات أخرى أجد لنفسي الشفاعة بمحاولتي أن أعثر على الأعذار المناسبة لذاتي وحماقاتي، وأمام التجريد المطلق لكل العالم فليس ثمة حقائق يمكن الاستناد عليها ليكون وضعي أنني كائن عاجز ضمن كون معقد، لا أملك أي خيار آخر سوى ما كنته. لا يمكنني بعد كل هذه الرحلة في الدنيا، أن أغيّر التاريخ وأقلب قواعد الماضي.

هل ما جرى معي من قصة حياة هو السبب في مآلاتي؟
وهل بلدي وما حدث فيه مسؤول عن حقيقتي وزيفي؟
وهل هو أبي؟ أو أمي؟!
ليس عندي من إجابة محددة، سوى أن أمضي في متاهة حكايتي إلى النهاية.. دون أن أفهم إن كنت سأجد قبل نهايتي روحي الضائعة والمنهوبة منذ زمن قديم بالنسبة لعمري الضائع بلا جدوى، كما أتصور دائما.
سأقفز إلى النهايات إذاً، إن كان ثمة نهاية للغموض، أليست الحياة غامضة وغريبة ومريبة؟!
أقفز للنهاية، قبل أن استرجع تماماً ما حدث في تلك الأسابيع الثلاثة، المأساة التي حلت بي وجعلتني أتوجع فعلاً وأقول إن الله ابتلاني وأراد تعذيبي. ربما أنا كائن كريه ولا أعلم بذلك أو أن الخالق يكرهني؟! لست أدري، وليس لي من تصديق أو تكذيب لحقيقة إيماني به هذا الرب الذي يسكنني، فأنا رغم ما أدركه عن روحي المعذبة وجنونها، عن تجردي عن العواطف والمشاعر وعن حنيني الدافق مرات لأمور مجهولة، أو أن يقول عني بعض أصدقائي وزملائي - إن وجدوا - أنني شفاف مصنوع من زجاج رقيق، رغم كل ذلك أظن غريباً في مواجهة حالي، حقائق عاطفتي وإيماني ومعنى وجودي عموماً.
بعد عودتنا وخلاصي من ذلك الكابوس الأرضي، الذي لم أكن أظن أنني سوف أخرج منه، تلك الورطة التي اسمها الوجود في البلد لا تحبه مطلقاً ولو لفترة محددة، لم أتخيل أن الحلم المفزع قد انتهى أو خلص لما لم أتوقعه أبداً، إذ لا توقعات في

ذلك المكان العجيب، الذي كان شيئاً جميلاً في ذاكرتي ذات يوم، يوم غادرته لأول مرة.
كان أن عدت من الخرطوم، وبعد شهر لا أكثر.. تقريباً. نهضت ذات صباح.. في الواقع قبل الشروق بقليل.. لأجد أنني استقبل عاماً جديداً في حياتي، فاليوم يوافق تاريخ ميلادي. وليس مهما ما هو ذلك اليوم بالضبط. قد يراه البعض مهما لأنهم يؤمنون بالأبراج ليفهموا من خلال برجي شيئاً عني، لكني لا أحفل بهذه الترهات. كان ذلك ذات قِدمٍ، يومها كانت الأبراج عالماً مثيراً بالنسبة لي، وكنت أحرص على قراءتها يومياً في الصحف، أيام الدراسة المبكرة في أوكرانيا.
أنهض لأجد حالي مثل ثور ذبيح، أشخر بصوت غريب، عمّا ألفته طوال حياتي. ما الذي يجري معي؟ هل أنا مريض ولا أعرف ذلك؟ هل تسممت من عشاء بالأمس؟ رغم أنني لا أتذكر أنني أكلت شيئاً له قيمة سوى قليل من الحليب بالكورن فليكس (رقائق الذرة المحمصة)، الوجبة المفضلة لي قبل النوم، خاصة إذا كنت قد تعاطيت ولو قليل من الكحول، فمنذ أن عدت لم يمر بي يوم، إلا وأنام سكراناً، لا أقدر على مواجهة أضغاث تلك الأيام المرعبة، لكن لي أيضا سبب آخر، سبب مزعج جداً.
العام الجديد من حياتي، كان بداية سيئة على أية حال، ليس بسبب زيارة ذلك الوطن الذي صار مقبرة لذكرياتي البعيدة والتي تبدو كأحلام لم تحصل، وإنما لذلك السبب الآخر المزعج، وحيث يكون لي أن أسلم رأسي للقدر، حتى يذبحني

كما شاء، فليس من حياة أو من أشياء عظيمة انتظرها على ما أظن، ربما في الماضي كانت تلك الآمال موجودة. اليوم يتلاشى الأمل ويتباعد الأهل والبلد وكل حقيقة في واقعي. لم يبق لي سوى القضاء والقدر والانتظار لنهايتي. أفكر بهذه الطريقة وبأعصاب ليست «كول» كما كنت ذات وقت قريب. المهم، أنا بمواجهة العام الجديد، بعد أن مضى العام التعيس الذي لملم أشلائه عمّا قليل ليمضي إلى الأبد، ليس مأسوفاً عليه، فليس عندي من مساحة للأسف والمراجعات، كما أنني بدأت أؤمن بأنها لعنة الزمن والتاريخ والإنسانية التي ابتكرتها لنا الأيام لكي ترهقنا بالدماء والدموع والرهان البالي على الأسف، حيث لا مناص من أقدارنا.

أقف أمام نفسي في مراة مشروخة في شقتي الصغيرة، لأسأل ذلك الشبح الذي هو أنا، «من تكون أنت أيها الضليل مع هذا العام الناهض؟ وهل ستكون لك القدرة والمثابرة على الجنون؟»..

ويبدو أنني أعرف الإجابة، فالأيام المقبلات لن تكون بخير أبداً، لن تسكنها سوى أتربة متراكمة لأوجاع ثقيلة هي حصاد عمري الذي يتكلل اليوم مع هذا الإحساس بالسخف لنهاية وجودي بهذا العالم على ما اعتقد، حيث لا ظن لي أنني سوف أعيش كثيراً بعد اليوم رغم أن الطبيب أشعلني بالأمل، لكني أظن أنه كاذب يريد أن يسوّق لأدويته التي يعلم أنها لن تحقق شفاءً لي، كما يريد أن يبتز ما تبقى معي من مال في رصيدي المتواضع بالبنك.

لـو افترضـت أن المـال نفـد خـلال شـهرين مثـلا، فلـن أجـد مـن يعيننـي، أعرفهـم النـاس والأصدقـاء سـوف يهربـون عنـي، وأحـس أن الحصـار قـد بـدأ مبكـراً وقبـل الموعـد المفتـرض، كأن رقـاع دعـوة موتـي تـم توزيعهـا مبكـراً؛ فأنـس أول العارفيـن لـم يعـد يهتـم بـي، فهـو قـد شـعر بدنـو أجلـي حتمـاً وأننـي بـت غسـالة ملابـس رديئـة فاقـدة للصلاحيـة، فهـو دائمـا يضـرب هـذا المثـل، لأن لـه ذكـرى سـيئة مـع الغسـالات الأتوماتيكيـة تماثـل ذكـراه مـع الحبيبـة السـودانية المجهولـة، وفـي تلـك الليلـة التـي تبـدو مثـل ضبـاب شـتوي، قبـل أيـام، كان قـد هـرب مـن أمامـي بالمقهـى، ناسـياً كيـف كنـت أعينـه فيمـا مضـى لأوصلـه إلـى سـكنه وهـو فـي أسـوأ ظروفـه وهـذا أضعـف مـا أقدمـه لمـن كنـت أحسـبه صديقـاً.

فـي جانـب آخـر فإن أربـاب العمـل كما يسـمونهم، لـن يسـاعدونني، أعـرف ذلـك، سـوف يرمـون بـي فـي المزبلـة، فقـد انتهـت صلاحيتـي بالنسـبة لهـم، وسـأواجه قـدري أمـام المستشـفيات حيـث لا رحمـة، إن لـم تدفـع لـن يحفـل بـك أحـد، هـل أرسـل لأبـي وأطلـب منـه الرحمـة والمـال؟ وهـل سـيكون لـه مسـاحة ليغفـر لـي ويحـاول أن يقـدم لـي شـيئاً مـا، لأجـل ابـن غيـر بـار مطلقـا؟ هـل سـيكون لـه متسـع مـن الصـدر لكـي يغسـل الماضـي فـي اللحظـات الأخيـرة مـن دنـو أجلـي ويأخذنـي إلـى صـدره، علـى أننـي ابنـه حقـاً؟!

تعـود بـي ذاكرتـي الوقحـة إلـى صـورة أبـي وهـو يحملنـي علـى ظهـره ويجـري بـي يسـابق العواصـف الترابيـة التـي تسـكن باقـي أيامـي المقبـلات، كان رزاز المطـر يداعبنـا ونحـن نتسـابق لكـي ننجـز وعـوداً مـن المتعـة مـع الحيـاة، فذلـك الأب كان فخـوراً بطفلـه

الصغير، بمحبته، ذلك الهدية الإلهية، الابن البكر، الأول والأخير، الذي وصل بعد انتظار عامين من انتظار المولود والقلق الذي تعانيه الأمهات عادة في تلك الظروف، مع أقاويل الناس التي لا تخلص وقصصهم المخترعة عن أن النساء العاقرات قد ربحن واحدة جديدة.

أقاوم الألم مع العام الجديد، مسترجعاً تلك الصورة وأكاد أبكي، فأنا أتغير دون أن انتبه، أغسل أدراني وأوساخي المتراكمة. أغوص في الطفولة البعيدة مثل نهر عميق، ساعة كانت الريح العنيفة تضرب النوافذ الخشبية في بيت جدتي لأمي بالبلدة على ضفاف النهر، مع بداية سنة وليدة. وقتها، كان أبي يحتفل بعيد ميلادي في مثل هذا اليوم تماما، يوقد لي ست شمعات، وهو يغني: «هبي بيرث تو يو» Happy Birth to you.

كنّا أسرة مختلفة كما تصورت وقتها وأننا لا نعيش على تقاليد بالية وقيم متوارثة ضحلة، وكنت أسمع البعض يقول «إن أبي منفتح جداً وأن خطر عليه»، ولم أكن لأفهم المعنى أو المقصود بوضوح، وكان بعض الجيران في الحي بالبلدة القديمة، يرون في مثل هذه الاحتفالات عبثاً وربما مخالفة للدين الحنيف. لكن أبي لا يحفل بأحد سوى قراراته الشجاعة.

في البلدة كان بعض الجيران يمارسون البغضاء ضدنا، قلوبهم مشغولة بالكراهية لنا كأسرة ميسورة الحال، في حين أن البقية كانوا فقراء. كنت بهي الطلة والطلعة بين أطفال وصبيان الحي، أتحدث الإنجليزية بطلاقة وابتزهم، وأتكلم بعض من الروسية عن أبي وأعارك الفرنسية من أمي معلمة اللغة

الفرنسية قبل أن يأتي قرار وزاري بوقف تعليم اللغة الفرنسية في المدارس بحجة أنها باتت من اللغات البائدة.
تناديني أمي: «يا ولد يا مجنون»، ثم أهرع إليها من داخل غرفتي، وترد عليّ بكل أناة وأنا أطوي الكتاب في يدي الأخرى، «نعم أنا يا أمي.. أنا هنا».. ومن ثم التفت فلا أرى من أحد. فقد كانت الأضغاث هي التي تداعبني وتناديني باسم أمي.
كان الماضي وغيبه وظنونه يطل في اللحظة الراهنة ليصنع لي أحداثاً ربما لم تمر بي أصلاً، لم تتشكل أبداً ذات يوم.. لست أنا ذلك الفتى أو الصبي الذي نادته أمه باسم (عبد الرحمن).. لست هو أنا!! وليست تلك الغرفة التي أصورها الآن في ذهني هي تلك الغرفة، ولا الكتاب هو ذاته الذي سأظن اليوم أنه هو. أتوقف لأكلم لنفسي إنه يجب أن أتوقف عن تلك الذكريات.. عن خيالات لا قيمة لها الآن لكائن لا يظن أن حياته ستكون طويلة جداً.
أخبر نفسي بذلك على مضض وأتخيل أن أبي يسكنني وينادني بأن أحضر إليه فقد غفر لي، ثم أفكر، أينا سيغفر للآخر، من المخطيء ومن المصيب؟
أبي الذي لا أعرف عنه أين هو الآن بالضبط في ذاكرتي، حتى لو أن لقاءنا الأخير كان قاسياً ومتوحشاً، ولم يكن لينتهي بهذا الشكل المؤسف لولا عناد كل منا؟
ثم أكلم نفسي: «لكن لن تتألم ما دمت قد غسلته عن دماغك منذ زمن بعيد»..
ومرات أخرى سأتوقف لأقول لنفسي، لكنها العاطفة.. ذلك

الشـيء الغامـض الـذي يشـدني لـه هـو وأمـي.. كيـف سأفسـر هـذا الجنـون الـذي يسـكن قلبـي؟!.. التناقـض مـا بيـن المحبـة والكراهيـة، فـي مسـاحة مـا يتداخـلان، ثـم مـرة أخـرى يتباعـدان جـداً.

كثيـر مـن الماضي كان ذكـرى منسـية وانطوت.. الأب والأم والأهل والأصدقـاء القدامـى، ليـس بإمكانـك أن تتذكرهـم جميعـاً فـي هـذه اللحظـات؛ لأن ثمـة أشـياء كثيـرة حدثـت فـي حياتـك محـت منـك الألفـة والعـادة، ورسـمت لـك عالمـا آخـر غيـر مـا كنـت تعرفـه، وتعيشـه سـواء بحـب حقيقـي أم مزيـف.

٣

الحي ساكن مع الفجر الباكر، لا أحد يُبدي رغبة في الحركة إلا أنت، وتلك القطة الأليفة التي تسكن في الحارة وتقابلك في الفجر وأنت تتمشى باتجاه المسجد لتصلي في البرد.. تصلي في المسجد أحياناً ومرات تنقطع عنه وأيضا ليس لديك من التفسيرات الكافية لأفعالك.. قضية الإيمان والشك ليست مجالاً لتفكيرك وانشغالاتك.. أنت تملي الأفعال في أغلب الأحيان لاسيما في هذه الأيام الصعبة بناء على ما يقوله الضمير وما تشير إليه البصيرة، ما أقواها هذه البوصلة المجهولة في القلب التي تقول لك أفعل ولا تفعل. هل هو المرض والإحساس بالنهاية، أم أنها وجعة هذا الوطن وأهله؟ الذي جعلك لا ترى من حلم باقٍ في العالم تستند إليه وتحس معه بالراحة والانتماء؟

ستُذكِّرك هذه القطة، هي الأخرى، بالصبا وتلك الذكريات البائدة، ما هي هذه اللعنة التي تطاردك اليوم لتجعلك ابن ذلك الزمن المنصرم؟!.. قطط وكتب ومصاحف ونساء وليال

ونجوم.. شوارد تطارد الذهن وتجعلك غير صاف البتة ويكون عليك أن تتعرف على ظلك وخيالاتك.. طهارتك ونجساتك يا ملعون. هل تسمي نفسك كذلك قبل أن تسمع من يناديك أيضا؟! ولكن هذه المرة حقيقة ليس كذبا.

إنه جارك بارمن الفلبيني ذي اللحية الصغير المشذبة والرأس الصلعاء. يقول لك:

«هاي هبي نيو أير» Hi Happy New Year

هل كان قد جاءته إشارة على صفحته بالفيسبوك فأنتما أصدقاء هناك، فعلم أن اليوم عيد ميلادك؟.. هي الحقيقة لا غيرها.

يهنئ ثم يمطّ شفتيه بدخان سيجارة ماركة بحاري.. مارلبورو أحمر أمريكي الصنع. في تلك الأزمنة كان البحاري المصنوع في السودان، قاسياً على الرئة يدخلها فيغسل قلقها ثم يجعلك حزينا واليوم عليك أن تنتظر موعداً مع قدرك وأنت في انتظار موت لذيذ حقيقي، لابد أنه آت مثلما أخبرك بارمن في الحلم. نعم، كان قد جاءك قبل قليل في حلم عابر أثناء نومك ليبشرك بالنهاية، والآن في الواقع لا يستحي أن يتذكر ما أسّر به من خبر مزعج، ولكن بطريقة ثانية.

لا تتذكر ماذا قال بالضبط أمامك وأنت مستيقظ وتختلط عليك تصوراتك الحالية وعدم تركيزك بالسماع منه جيداً مع ما رأيته في النوم، وحيث تبدو الذكريات حتى الحديثة جداً مشوشة، لأن دماغك كان غير مُركِّز أو ليس هو ذلك الذي تعرفه، هل تم استبداله وأنت في سكرتك ليلا؟!.. لربما!!

وتسمع صوتك يخرج من جوفك، ليرد عليه:

«بارمن دونت سيَ أني سنيج!»Parmen don’t say any thing!

«يو.. مان.. you man

يريد أن يثرثر كعادته متى ما التقيتما، وأن يظهر بعض من مفاتنه الجسدية، كمخنث حقيقي يفتخر بذلك، لا كالزهاوي المزيف. لا تحتمله لأن شكله لا يشجع أبداً.. قصير القامة بوجه مكوّر وغباء أكيد..

دون أن تفكر كثيراً تجرب معه مهارتك في «البوكسن».. تضربه خمس مرات فتطيح به أرضاً ببقايا رأسك الثقيل، وأنت قادم من المسجد. يكون قد سقط عند مياه المجاري.. تتركه يتلوى، وعمّا قريب سوف يفهم أنه كان سكراناً.. ولن يُبدي إنزعاجاً، فليست هذه هي المرة الأولى التي تجرب معه هذا الخبط والضرب. فمثله يبدو بالنسبة لك كائناً غير موجود في هذا العالم، حتى لو أن له وجود حقيقي وماثل.. تتخيل ذلك.. فكل الأشياء التي لم تعرفها ذات طفولة بعيدة، فهي الآن غير حقيقية البتة في تصوراتك، رغم أن عقلك الواعي يقول العكس أن الحقيقة هي الآن..

مرة ليست بعيدة كنت قد ضربته ليلاً، وفي الصباح اعتذرت له، أو اعتذر لك ليس مهما، فبارمن ليس عنده من إحساس بهذه الأمور. كنت قادماً من أحد الفندق في آخر الليل وفي ذهنك صوراً متداخلة لرجل بالبار، كان يحاول أن يقرص أحداهن في ردفها، ثم تلقى منها صفعة بكف مخضب بالحناء.. أظنها تشبه تلك السودانية التي كان يعشقها أنس وكان يحلم بزواجها..

كانت قد رسمت نجوماً سماوية في كفها التي صفعت بها النادل الفلبيني.
غضبت جداً فهي ابنة جنسك وبلدك، وعلى الكريم والنبيل أن يحمي حرمته، ولهذا قررت أن تنتقم ضد بارمن الذي لا ذنب له.. هذه هي املاءات خيالات رجل سكران غير مسؤول عما يفعل، يوجه اللكمة على بطن بارمن المنتفخ، متذكراً انه يشبه كرش رجل عجوز كان يتمرن على المشي في البار، في حين كانت السودانية المغرورة التي لم تقل لك شكراً أو حتى تهديك ابتسامة مقتضية، قد شرعت في مراقبة السماء في المكان.. تتذكر الآن اسمها، ليلى..
هي عربيدة تجلس طوال الليل هنا.. وأنس بات مفتوناً بها لأنها هيجت فيه ذكريات تلك المرأة التي أحبها ذات يوم. يدخل الحمام ليتبول مراراً، يكون قد تركها تعاين السقف الذي تظن مع سكرتها أو سكرتي لست متأكداً، أنه السماء، فقد كانت فيه نجوم تضيء ملونة بشتى الألوان.. وكانت غرفة البار المستطيلة تشع فيها الإضاءة الخافتة مع رائحة شبق مجنون، لنساء يقضين الليل هنا.. ليلى واحدة منهن، امرأة مجهولة بالنسبة لك كنساء سودانيات كثيرات هجرن البلد منذ سنوات بعيدة وربما قريباً، تركن وراءهن أسرارهن هناك، رغم ذلك تجد نفسك مضطرا للدفاع عنها.
تترك بارمن هذه المرة.. لا تقدم له الدعم كما في تلك المرة الأولى بأن تساعده على النهوض من على الأرض.. تمشي بخبط غير مسموع، تفتح باب الشقة لتستقبل صوت مكيف الهواء

الـذي تركتـه يعمـل منـذ العصـر.. الغرفـة بـاردة جـداً.. تسـرع بحثاً عـن «الريموت كنتـرول» لا تجـده لتغلـق المكيـف.. تسـرع للضغـط على المفتـاح الدواسـة علـى الحائـط، معـه ينطفـئ النـور وتعيـش فـي الظـلام، ومـن جديـد تجـرب الـدوس باحثاً عـن مفتـاح المكيـف إلـى أن تلمسـه، فتضغـط عليـه ليهـدأ المـكان مـن ضجيـج الآلـة القديمـة والمعطوبـة فـي أكثـر الأوقـات..

تـروح أنـت علـى السـرير.. عفـوا علـى الأريكـة متأمـلاً عمـرك وسـنوات بؤسـك التـي مضـت منـذ أن أتيـت إلـى هـذه المدينـة التـي تبـدو فـي دماغـك كأنهـا خيـال لا حقيقـة، ثـم تمـارس العـادة السـرية بقـوة، لتبلـل اللحـاف، وأنـت غيـر مكتـرث لمقامـك ولا عمـرك ولا معنـى وجـودك فـي هـذا العالـم.. تنطـوي مـا بيـن بقايـا السـكر والنعـاس ولـذة السـاعة التـي قضيتهـا فـي المسـجد إلـى أن انتقمـت لنفسـك مـن بارمـن الصعلـوك، الـذي يريـدك أن تلعـب معـه بـأي شـكل كان.

٤

تمضي أيام أخرى.. يتأخر الموعد المعلن.. الموعد الذي ضربه بارمن في الأحلام لموتي. ومن على النافذة في الطابق الخامس يبدو كل شيء جلياً لكنه ليس مكتملاً، فالناس الذين يسيرون في الشوارع لا يروون كل القصة، إنهم فقط يصنعون المقدمات أما القصص فهي مسؤوليتي أنا أشكّلها في دماغي المتوجع مع هذا الصباح.

وأنا أقف وحيداً في انتظار أن تشرق الشمس لأراها وراء سديم بعيد مشوش وغائب، أشعر كما لو أنني في مكان لا أنتمي له، أو في عالم آخر ليس له صلة بهذا الكوكب. ربما هي الغربة وجراحها كما يقولون وإن كنت مؤمناً أشد الإيمان أن الاغتراب الحقيقي يكون للذوات والأرواح وليس للأبدان والعلل الظاهرة من الأمور، فليس صراعي إلا مع ذاتي المرهقة والعجولة وطاقتي المنهكة وعذاباتي التي لم أفرغ منها بعد. ألمي وأنا أتذكر بلدي الفاجعة وأبي القاسي وقسوتي أيضا، أما أمي فتتلاشى في الآفق لا أحس بأي عاطفة نحوها رغم أنني في

الأمس كنت اشتاق لها. ربما السبب ببساطة هو تلك الخدعة التي مورست ضدي. أن يقال لي أنها ماتت وهي حية، لقد كانت جزءاً من تلك اللعبة ولأي سبب أو مبرر سوى الحنان والشوق، أن تعيدني بأي ثمن إلى البلد، لكنها كانت لعبة غير مستساغة أبداً.. كانت جرحاً لي!.. ولا أعرف ما يدور بذهني إن كان ذلك المبرر كاف ليصنع جرحاً لا يندمل، إذ كان مثلاً بإمكاني أن أنسى وأغفر لها فعلى أي حال هي أمي.. نعم أمي.

كان ذلك الجرح، واحداً من عشرات الجراح المتراكمة عبر السنين، لتاريخي الممتد ناراً لا تهدأ من الألم. يقول أصدقائي عني إنني غامض، أعني زملائي في العمل كما أنس مثلا وآخرون قبله وأنني أبدو كطائر مهيض الجناح، هذه التشبيهات الرومانسية التي تعزز فكرة الوجع دون أن تظهر بالنسبة لي أي تعاطف سليم يمكن أن يخدمني في أزمتي. لكني أقول إن تاريخي القديم وإلى اللحظة ليس مهماً بدرجة كبيرة وأنه ليس واقعياً حتى لو أنه حدث، وهو إحساس ينتابني كثيراً، يصعب فهم سببه أو مصدره، لهذا مهما حاول أحد منهم أن يفهم مني شيئاً حول الماضي لن أكون صادقاً معه، سأبدأ في تأليف الأكاذيب، كما أنني أحياناً أخلط بين وقائعي الصحيحة وطفولتي وصباي وشبابي مع أمور لم تقع أبداً. وفي ساعات المقاهي والبارات والليل يكون لكل حكاية أن تتخذ أكثر من مسار وأكثر من رواية، وكل رواية ملفقة كأختها حتى لو استندت على مرتكز واقعي.

هل كانوا يفهمونني ويدركون حقيقتي؟ لست متأكدا..

مـرات يقولـون عنـي إننـي واضـح وصريـح.. أضحـك مـع نفسـي دون أن أفضحهـا.. ومـرات يصفوننـي بالغمـوض.. ليـس مهمـا أيضـا. المهـم أنهـم لا يفهمـون مـن أكـون أنـا.. تلـك الأنـا التـي لا أفهممهـا.. أنـا الآخـر!!..

مـع الأسـابيع الأخيـرة والمـرض المخيـف صـارت الأمـور سـيئة للغايـة، أصبحـت أميـل للثرثـرة مـع أنـاس لا أعرفهـم أقابلهـم فـي السـوبرماركت أو الشـارع أو المصعـد حيـث أسـكن، يحـدث ذلـك بكافـة اللغـات الممكنـة، فأنـا أتكلـم العربيـة والإنجليزيـة والفرنسـية والروسـية وقليـل مـن الهنديـة والفارسـية.. أثرثـر لكـي أشـعر بأننـي موجـود فـي هـذا العالـم وأننـي يمكـن أن أتواصـل مـع هـذه الكائنـات التـي تتحـرك مـن حولـي، والتـي يسـمونها بشـر. كان شـعوري بالعالـم والموجـودات يتضـاءل بدايـة بنفسـي التـي بـدأت تنهـك كثيـراً، كان الإحسـاس المؤلـم بالنهايـة التـي دنـت، وتهديـدات بارمـن فـي الأحـلام المتلاحقـة.

فـي الماضـي كنـت أقـول إن أشـياء كثيـرة سـوف تحـدث فـي المسـتقبل وسـيكون أجمـل ورائعـاً.. وأن الظـروف المناسـبة لأقـدار سـعيدة سـتأتي مـرة واحـدة.. حزمـة واحـدة.. كنـت إذن أقـول إننـي سـوف أتـرك كل شـيء للظـروف وللأوقـات «المناسـبة» التـي هـي قادمـة دون شـك. اليـوم.. أراجـع تلـك الأفـكار فاكتشـف خبلـي.. علـى الإنسـان أن يشـرع فـورا فـي الإرادة وأن يسـتجيب لهـا، حتـى لـو أنـه لـم يكـن متأكـداً مـاذا يريـد بالضبـط، فعليـه أن يقـرر ويسـير فـي الطريـق المجهـول، سـيجد أن هنـاك قيمـة مـا وراء ذلـك المسـير، وسـيصل إلـى نقطـة مُرضيـة. هـذا كان حالـي أننـي لا

أعرف ماذا انتوي أو أريد.. أنني أركز على الألم وروحي المنهوبة ولا أنظر لسوى الشؤم في داخلي.. كنت ساكنا «كول».. والآن في ظرف وجيز يتغير كل ذلك.. يخرج من داخلي عفريت ملعون كأنني أراه أمامي ليخاطبني من داخلي ويتكلم مع الناس بشتى صور الأكاذيب والخيالات.

الآن أرى أن «المناسب» كلمة مضللة.. يجب أن تحدد أنت المناسب وتمشي باتجاهه.. لا يقين في العالم إلا أنت وإذا فات الأوان فلا رجاء البتة. إن البحث عن «المناسب» من غير هدى هو ملهاة تعادل مأساة الحياة في حد ذاتها.. الكوميديا القدرية المثيرة التي يجب علينا أن نطيعها شئنا أم لا. وأصبحت كلما أتذكر هذه الكلمة، أشعر بأنها تستفزني.. فالمناسب شيء غامض وغريب، صعب التحديد، هلامي.

أدع كل ذلك وأركز في تأملاتي الصباحية، وأول خيوط النهار التي تنطلق بحياء تام، تدخل ناصية غرفتي المستطيلة، حيث تتراكم ذكرياتي الجديدة والقديمة، كتبي وأشيائي، وخرافاتي، وربما جنوني. لا أحد يتوقع كيف أعيش أو أصارع ما تبقى من عمري هنا، وأنا انتظر النهاية بهذا الداء اللعين، المؤلم والقاتل، فمنذ علمت بالخبر من ذلك الطبيب المتكرش، وأنا لست حزيناً بقدر ما يشغلني هاجس أن أقوم بأمر ما، يكون له قيمة، ومن خلاله أعرف من أكون، أو يعرفني الناس من بعدي، إن مت، وحتماً سوف يكون ذلك قريباً جداً، فربما هو عام أو أقل تبقى لي.

أخيراً بت أشعر بأنه كان يمكن أن يكون للحياة معنى.. إلا أنني

فـي سـاعات أخـرى أفكـر فـي أن أنهـي هـذه الملهـاة وأهـرع سـريعاً إلـى عالمـي الآخـر، مـاذا سأخسـر، فأنـا لسـت مؤمنـاً كمـا يجـب. لكننـي أيضـا أخـاف، لسـت شـجاعاً بمـا يكفـي لمواجهـة المـوت، فهـذا المـوت ليـس بارمـن الفلبينـي لأقـدر علـى مواجهتـه.

ثـم أنـام.. تصارعني فـي الأحلام كائنـات مجهولة وأشـباح وزومبيات علـى شـاكلة بشـر، يمتصـون دمـي وينامـون فوقـي علـى أننـي متحجـر أو وسـادة قطنيـة مبتلـة فـي ليـال حـارة. هـذه الكوابيـس والتشـرخات التـي تحيـط بـي فـي الليـل تجعلنـي غيـر واثـق مـن المواجهـة والمصيـر القـادم، مـا الـذي يقبـع وراء السـرداب، إن مـت اليـوم معلقـاً بحبـل علـى السـقف، أو تناولـت تلـك الأقـراص التـي اشـتريتها ووضعتهـا منـذ أيـام فـي الخزانـة وسـط الأوراق والكتـب فـي انتظـار لحظـة شـجاعة؟!

أنـا جبـان يجـب أن أعتـرف بذلـك.. فطيلـة حياتـي أنـا خاسـر، لا أعـرف المواجهـات ولا ابتـكار اللحظـات التـي تصنـع التحـدي وتشـكّل الإنسـان الـذي أحلـم بـه. ربمـا كان ذلـك تواضعـاً منـي. لكـن ثمـة أمـور أخـرى يجـب وضعهـا فـي الاعتبـار، هـي مخاوفـي وظنونـي، وكونـي متقلـب الفكـر والبـال، وأننـي قبـل كل شـيء أجهـل هدفـي فـي هـذا العالـم، أسـير بغيـر هـوى. اننـي بإختصـار كائـن وضيـع.

٥

منذ أن حللت هنا، في هذه الغرفة التي تُشكِّل شقتي مع مطبخ صغير وحمام، ذلك بعد عودتي من السودان واكتشاف آفتي، حيث فعلت ما فعلت أي سكنت هنا، كان ذلك باقتراح من الطبيب المعالج.. الذي نصحني بأن أول الخطوات النفسية لمعالجتي هي أن أغيّر مكان سكني.. وهكذا نفذت، ولكن احتفظت بأغراضي، نقلتها كما هي، ولهذا أجلس أو أنام لتتراكم حولي الكتب واللوحات والصور والظلال القديمة لطفولة بائسة، وأنا أحاول أن أصنع لحياتي معنى في المتبقي لي من الوقت الضائع، فقد نصحني الطبيب كذلك بعدم اليأس، قائلاً: «إن هناك من يتماثلون للشفاء فيما يشبه المعجزات»

ثم يضيف مؤكداً لي:

«المعجزة موجودة في العالم وداخل كل إنسان لكن عليه أن يكتشفها ويستخرجها من باطنه مثل كنز مدفون في الأرض»

كان طبيبي هندوسياً ينتمي لثقافة الهند العريقة، رجل له عينان قويتا النظرات، وكارفتة لها لون غريب يصعب أن اسميه، ربما

لضعفي في تعريف الألوان رغم أنني أسمي نفسي رساماً في بعض الأحيان، وأنا الذي لم أنظم ولو معرضاً واحداً في حياتي، فاللوحات التي أرسمها غالباً هي لي وحدي وكثير منها ينتهي إلى التمزيق لجبني والخوف الذي يسكنني من الفشل، واغترابي الذاتي الذي لا أفهم مبرراته الحقيقية.

أجلس مقابله على الكرسي، يتكلم كثيراً بعربية ملكونة، يخلطها ببعض الإنجليزية بالطريقة الهندية، وقليل من الألفاظ والعبارات غير المفهومة بالنسبة لي، ربما لعدم الانتباه أو التركيز بدقة، وهي آفة أعاني منها منذ سنوات، أجهل أسبابها أيضا.

يكلمني عن فلسفته حول المعجزات، وأنني يجب أن أتمسك بالأمل، وأن اقرأ كثيراً في مؤلفات وكتب سيقوم بتقديمها لي، موضوعها الأساسي ما يسمى بعلم الشفاء الذاتي أو التداوي بالإيحاء، يمضي في التعريف بذلك العلم ومن هم مؤسسيه وكيف يكون له أن يخلص الطب من عمليات جراحيات كثيرة تجرى بلا فائدة، فمن الممكن أن تكون الجراحة عملاً متوهماً له نتائج ناجحة.

يستمر ليحكي لي عن تجارب وقصصاً يقول إنها صحيحة مائة بالمائة، ليس فيها من أدنى تزييف، تتعلق بهذا العلم القديم الذي أعيد اكتشافه في ثورة علوم جديدة في أواخر القرن الماضي، في اتجاه علمي لا يسميه، يشير إلى أنه موجود في الطب والعلوم عامة، يتعلق بالبحث عن الحلول البديلة والبسيطة والإيمان بأن المعجزة موجودة في داخلنا.

أخـرج مـن عنـده مصدقـاً لـكل مـا قـال، مشـكلتي أننـي أصـدق، أعيـش الأقـوال وأؤمـن بهـا ومـن ثـم أسـرع لنفيهـا وركلهـا سـاعة أجلـس مـع ذاتـي وأواجههـا بالنقـد الـلاذع، ذلـك الـذي أعجـز عنـه أمـام الآخريـن. فأنـا لا أعـرف أن أنقـد شـيئاً أو أهـدم فكـرة إلا فـي خيالـي أو علـى الـورق الـذي أدمنـت الجلـوس معـه منـذ سـنوات صبـاي، أكتـب وأثرثـر بمـا شـئت وأمزقـه فـي الغالـب، مـرات أحلـم بـأن أكـون كاتبـاً كبيـراً أو روائيـاً ومـن ثـم أتنـازل عـن حلمـي لأننـي ببسـاطة لا أقـدر موهبتـي، أو أننـي أرى نفسـي عاجـزاً وأن ملكاتـي ليسـت كالآخريـن الأذكيـاء والماهريـن، يعنـي ببسـاطة أننـي لا أثـق فـي قدراتـي، تلـك آفـة أخـرى مـن آفاتـي منـذ سـنوات بعيـدة. كمـا أمـزق اللوحـات، أصبحـت بعـد أن صـرت أكتـب علـى الكمبيوتـر مباشـرة، أسـرع لمحـو الملـف بعـد أن أكـون قـد عبـأت صفحـات بيضـاء بالكثيـر جـداً مـن الـكلام والقصـص والحكايـات، التـي ربمـا لا أتذكـر منهـا الآن مـا أراه مهمـاً.

أخيـرا فـي هـذا العصـر.. أصـدق كلامـه.. أهـرع لدخـول مكتبـة فـي «المـول» الكبيـر الواقـع قريبـاً مـن غرفتـي، حيـث أسـكن بالطابـق الخامـس فـي تلـك البنايـة القديمـة. أتحسـس الكتـب وأشـمها مثـل رائحـة أنثـى عبقـة، كواحـدة مـن النسـاء اللائـي كـن رفيقاتـي فـي تلـك الليالـي القريبـة جـداً قبـل أن أعـرف بخبـر هـذا الـداء اللعيـن، وقبـل أن يسـتجيب اللـه ربمـا لدعـاء أمـي بـأن ينهـك جسـدي، وهـي تشـتمني أمامـي، وتدعـو لـي بالنهايـة العجولـة، وإن لـم آخـذ الأمـر بمنتهـى الجديـة فـي البدايـة، إلا يبـدو أنـه صـار حقيقـة.

منـذ أن علمـت بالخبـر المشـؤوم، فـي ذلـك اليـوم الـذي نسـيته

موضعه من الأسبوع.. وأنا لا أرغب في سوى نفسي، لا أنام مع أية امرأة ولا أدفع درهماً واحداً لعاهرة في الليل، من أولئك القادمات من بلدان شرق آسيا، فهن من كن يستهوين روحي ويقتلن وحشتي، أتي بالواحدة منهن في غرفتي المكدسة بالأوراق والكتب والأقلام وأشرطة الكاسيت والأقراص المدمجة لمطربين غربيين، بالإضافة إلى اللوحات والألوان المترعة على الأرضية والشخبطات على الجدران وفي قلبي. أُرقِدها في أي ركن من الغرفة الأولى التي هجرتها، وأفرغ أوجاعي، أدفع لها الثمن ثم تمضي لحالها وفي اليوم الثاني أبحث عن أخرى من بلد آخر، متنقلاً في الجغرافية الآسيوية التي تستغويني منذ أن جئت إلى هذا البلد.

أقرأ عنوان كتاب وآخر، وأعيده إلى مكانه بعد أن أتصفحه، أخيراً أقرر شراء خمسة من الكتب في ظل الموضوع الذي يراهن الطبيب الهندوسي أنه سوف يحقق لي المعادلة المفقودة إذا ما رغبت روحي حقاً وتوصلت لقناعة بأنني سأشفى فعلاً وإلا فلن يحدث أي تطور. فقد كان يكرر لي بأن اليقين هو أول الخطوات باتجاه العلاج، ما سوى ذلك لن يكون أي أمل. يجب أن تتسلح بالجياشة الكاملة التي تقنعك أولاً بأنك سوف تكون أفضل في الفجر التالي. نم مبكراً وصلي بحسب معتقدك ولا تنسى أن تدعو الله أو الطبيعة أو الكون. نعم نادي ذلك المجهول والغامض فهو الذي يسمعك، فالديانات واحدة. الله واحد تتعدد الوسائل والطرق الموصولة إليه، غير أنه في النهاية هو الرب وهو المسيح وهو يهوه وهو النار المشتعلة في

معبد في ليل بارد، هو الحيرة التي تسكن كل كائن ويبحث عن تفسير لها. الله ليس بعيداً عن الكل، عن الذات، هو في القلوب والأوردة يعيش، وقلة هي التي تكتشفه لأن الناس باتوا محجوبين بأغلفة وستر لانهائية، لأنهم خائفون يفتقدون للشجاعة، يهرعون للعمل ولعبادة المكاتب والمصانع والأرزاق، وينسون أن الله فيهم يقرر لهم. الله لا يحترم الخائفين ويحب الشجعان يا ابني.

يختلط عليّ ما اقرأه في الكتاب قبل أن أضعه في الكيس، مع ما سمعته من الطبيب الهندوسي مع تأملاتي كخائف يجب أن يكون شجاعاً ليبصر المعجزة ويشفى من داء لعين. وقبل أن أسدد فاتورة الحساب للجرسون في مطعم ماكدونالدز القائم بالطابق الميزانين من المول، أدفع بالفيزا كارد، حيث قليلاً ما أحمل معي عملة ورقية، أكون قد قررت فعلاً أن أقوم بأشياء مهمة تجعلني شجاعاً وقادراً على العيش بجرأة سواء تحققت المعجزة وشفيت أم لا.

أهرع محملاً بالكتب والذكريات.. لا أفهم حقيقتي من أكون وماذا أريد في ما تبقى لي من عمري! وهذا طبعاً يخالف وصايا الطبيب الهندوسي باريك.. الذي يبدو لي اسمه رائعا ولطيفا، لكن لا مجال للتفكر في هكذا أمور، ربما كان الماضي مناسباً لذلك، ومن ثم أغالط ذاتي بأن شجاعتي يجب أن تبدأ الآن وإلا لماذا ذهبت لشراء الكتب لأقف على العلاج؟ وإلا لماذا فكرت أن أكون صادقاً اليوم مع نفسي؟ يجب أن أكون طبيعياً وأن أعيش وفق مزاجي المعتاد، كأن شيئاً غريباً أو استثنائياً يحدث

فـي حياتـي، يجـب أن أجعـل يومـي خاضعـاً للمألـوف.
مـن هنـا فكـرت بجديـة وأنـا أسـير باتجـاه غرفتـي، أحمـل الكتـب، أن أمـر علـى إميلـدا. لكـي أغسـل أوجاعـي.. أريدهـا أن تبيـت معـي الليلـة، وقـد جـاءت معـي دون تـردد.. أعـرف أنهـا تسـتلطفني لشـيء غامـض أيضـا.. فالغمـوض هـو سـر حياتـي ومفتـاح ألغازهـا.. أنـا بجوارهـا نشـرب سـويا إلـى الفجـر.. نصحـو ونسـتيقظ.. أجـرب أكثـر مـن حبـة فياجـرا وأرمـي بالواقـي الذكـري تلـو الآخـر.. ثـم أنسـى أن اسـتخدمه بعـد أن أكـون قـد غصـت فـي عالـم آخـر، حقيقتـي التـي فقدتهـا فعـلاً، واعتقـد أن وقـت اسـترجاعها قـد حـل فـي الزمـن الضائـع.
فـي الظهيـرة، بجـواري تنهـض إميلـدا متثاقلـة مـن فراشـي، أعنـي مـن لحـاف متكـوم فـي ناصيـة غرفتـي، تعايـن اختلاسـات الشـمس مـن النافـذة الوحيـدة فـي الغرفـة وهـي تدخـن سـيجارتها ماركـة مارلبـورو الأمريكيـة، ربمـا كان فـي خاطرهـا ذكريـات قديمـة وأشـياء يجـب أن تقـال للـذات عـن الأحـلام الضليلـة والسـنوات التـي تنهـك الجسـد.
أنظـر نحوهـا فأراهـا رغـم جسـدها المسـبوك بعنايـة إلهيـة فائقـة، تبـدو متعبـة، نحيلـة، قاسـية علـى روحهـا الطيبـة، هكـذا أحسـها وأنـا أقـف وراءهـا أمسـك بهـا وأضمهـا نحـوي بقـوة، ومـن ثـم أرتمـي بهـا علـى الأرضيـة خـارج اللحـاف، وهـي تصـرخ بقـوة ليسـت ملكهـا، كأنهـا كائـن آخـر، تقـول لـي مـا معنـاه كفـى، تعبـت، ومـن ثـم تفصـح بإنجليزيـة متقنـة ذات لكنـة محببـة عـن مـا تظـن أنـه مبررهـا:

«أنت لم تدفع سوى المطلوب لليلة وقد انتهى الليل»
كانت مفاجأة لي.. فإميلدا ليست مادية مطلقاً.. إنها تحبني من أجل الحب لا من أجل المال.. ما الذي جرى معها في الفترة السابقة..
حاولت أن أشرح لها هذا العهد القديم بيننا إنها ليست كالآخريات. لكنها أجابت بإقتضاب:
«لا تظن أن كل شيء يظل كعهده.. منذ تركتني تغيرت كثيراً»
«لكنها ثلاثة أسابيع فقط.. لا اعتقد أكثر..»
«لا.. أكثر يا حبيبي»
وضربت على رأسي.. ثم قالت لي:
«عموما هذه المرة سأعفيك ولكن في المرة القادمة..»
«هذا لو بقيت على قيد الحياة يا..
كنت مضطراً لأحكي لها كل شيء.. كان مؤلماً بالنسبة لها.. رأيت لأول مرة إنساناً صادقا بجواري في هذا العالم، أظن أنه يبكي لأجلي.. وودعتني بدموع ثقيلة وهي تغلق الباب بهدوء، وهي تقول لي:
«لا عليك ليس المال كل شيء.. لو اشتهيتني تعال لي بكرة وخذني من سكني مع الفتيات هناك في الفندق القديم..»
لو كان الأمر كالماضي فأنني لا أنام مع المرأة نفسها مرتين متتاليتين.. لكن الآن هاهي حياتي تتغير بانتظار مجهول قريب، ما هو غير مفهوم وغير مدرك!!

بث ثالث
اجترار الألم العظيم

١

في السابق كان صديقي أنس الحيفاوي - نسبة إلى حيفا -، قبل أن يهرب مني ويتركني، يردد مرات، «.. أحيانا يستغرق الجرح سنين طويلة لكي يندمل.. وفي بعض الأحيان لا يشفى أبداً يا صديقي».. وبتجربتي مع الحياة تعلمت أن ذلك يعتمد على عمق الجرح وطريقة الشفاء نفسها..

بدأت الحكاية التي كنت أقص بعض من فصولها لإميلدا، مع حديثي عن معنى غامض لكنه محسوس اسميته الألم العظيم، كيف بدأ؟ لا أعلم بالضبط!.. لعله أبي المسؤول عن ذلك كله، حيث لا أعرف كيف صاغني ليريدني على طريقته الخاصة، فكان ما كان.

وبدأت أكلمها، أنني لا أدري كيف وصلت إلى أوكرانيا لكي أدرس هناك؟! هل كان ذلك خيارا إلهياً كما قال أبي بعد تلك السنين الطويلة، ليُكفِّر عن ذنبه، بعد أن أصبح يلبس عباءة الرب ويتحدث باسمه، الرجل الذي كان ذات يوم لا يؤمن بغير

نفسه، وكنت أنا جزءاً من مأساة وجوده في هذا العالم، قطعة مجتزأة من تلك النفس الكلية التي تقرر ما شاءت في ابنها، بظن أنه ملكية خاصة يجوز التصرف فيها وفق ما أرادت.
في الطريق إليه ونحن في السيارة، كنت أفكر في شكله، هل تغير وظهر الكبر على ملامحه خاصة أن السنين قد طوت بعضها البعض دون أدنى استئذان.
فجأة ينبته الإنسان لكارثة العمر الذي يمضي. هذا إذا كان يحب الحياة، لكن لا أحد غير عاقل يكره المعنى بأن يكون هنا في هذا الجحيم الأرضي. نعلم أنه كذلك ونُصرُّ على العيش فيه.
تتوقف السيارة عند ناصية بيت فخم مكون من طابقين، فيلا في ذلك الحي الارستقراطي من المدينة، لكنه ذلك الغنى المضطرب، حيث الشوارع مهملة والأوساخ متراكمة في كل مكان، وحيث الشحاذون فالخرطوم باتت مدينة المتسولين، وحيث باعة مشردون وصبية يجوبون الطرقات بحثاً عن عمل، أي نوع من الأعمال الشاقة التي يؤدونها في هذه المنازل الفخمة مقابل أجور منخفضة أو أحياناً مقابل أشياء لا تروى، المهم هو لقمة العيش.
«ليس كل هؤلاء الصبية حمقى فمنهم من يعرف كيف يستفيد من نعمة الله»
أسمع هذه التعليقات يرويها السائق، وهو يشير إلى أحد الصبية في الشارع، يقوم برش الماء أمام أحد البيوت من خرطوم يرفعه عالياً ما أمكن ويضغط بقوة على نهايته ليخرج

الماء بعيداً في شكل دوائر متناثرة.. لا يمكن التأكد من بعيد، من هوية الصبي، لكن الرجل يستمر في قصصه التي لا يمكن التأكد أيضا من صحتها أم كذبها:
«إنه ألطفهم هؤلاء الذين يقطنون في هذه المربع»
يتحدث كمن عنده خبرة جيداً بالمكان وأناسه..
لكن لا أنا ولا أنس كنا نفهم ما الذي يقوله الرجل بالضبط، ولا تنقلاته من موضوع لآخر طوال الطريق أو الهدف الذي كان يقصده من وراء كل عبارة أو حكاية.
أنا شخصياً لم أركز معه، فقد كنت مشغولاً بأمر والدي، إلى أن فُتِحت البوابة بالرموت كنترول ودخلنا بالسيارة، وقفت بنا تحت عريشة من شجر اللبلاب المتسلق بلونه الأخضر الفاقع مع أشعة الشمس الضاربة.
أعادني المشهد لذكريات الطفولة البعيدة، وقتها كان أبي يزرع تلك الأشجار بنفسه ويسقيها حتى تنبت وترتفع لأعلى ويجهز لها العرائش، إذن هذه أول الدلائل على أنه موجود هنا، وأنه حافظ على الأقل على بعض من الأشياء التي كان يعشقها في الماضي، لو أن حدسي لا يكذب.
نجلس قليلاً في صالة الانتظار المجهزة بأثاث فاخر، قبل أن يتقدم رجل منحني الظهر بلحية كثة، يلبس فانيلة زرقاء وبانطلون رمادي، رأسه قاحل من الشعر تماما.. يرفع رأسه لأتبين أنه هو.. ثم تداهمني عبرة في حين انفلتت مشاعري جداً، فالدم لا يذهب هباءً.. إنه أبي.. وأسرعت نحوه لكي احتضنه.. لكنه أزاحني بهدوء إلى الوراء قائلاً:

«أجلس مكانك...»
لم يزد العبارة.. ولم ينظر باتجاهي كأنه غير مهتم بي أصلاً.. وشككت هل لم يعرفني!!.. أم أنه قد يكون جُنَّ وفي هذا الحالة سوف أجد له العذر، لكن بعد قليل سينطق باسمي..»مرجان»..
نعم أنا مرجان.. كأنني اكتشف هذا الاسم لأول مرة، أو اسمعه في تلك الأيام التي كان فيها للحياة رونق أخرى، حتى لو أنه يأتي الآن منطوقاً بقسوة وحزن دفين.. سأعرف الآن جيداً أنه متأكد من أكون.. نعم أنا مرجان ولست عبد الرحمن كما سمتني أمي، ثم تراجعت عن ذلك القرار المبكر. وهكذا دائما ما يحدث صراع في اسماء الأولاد البكر، بين الأم والأب، وغالبا ما ينتصر الآباء.
سراعاً تداعت إلى ذاكرتي صور مختلفة من شريط حياتي وألمها المستمر منذ تلك الأيام.. تحديداً يوم اكتشفت الجريمة التي ارتكبها بحقي.. وكانت زوجتي الأوكرانية، تنظر باتجاهي وهي الأخرى غير مصدقة.. ماذا سيقول أخ لأخته؟!! ولم يكن لنا سوى الصمت.. في حين كان ابننا هو الضحية.. ضحية هذا المكيدة التي مارسها أب باتجاه ابنه.. أما والدتها فليس بإمكاننا أن نفهم ماذا كانت تنوي أن تقول وهل كانت تعلم أم لا؟! فقد رحلت قبل سنة من ذلك اليوم المشؤوم.. أي قبل عام من ذلك الاكتشاف القاسي.
كنت أقص لإميلدا حكايتي.. وأنا أعاني رهق الاقتراب من أجلي، نهايتي.. ربما أُسلي نفسي بانتظار الموت وكلي شجاعة في الاستعداد له. أكلمها وأعيد في ذهني صورة الرجل صاحب

البدلة الداكنة، وهو يهمس في أذن الرجل الذي كان اسمه أو صفته أبي.. وكيف مضت ساعات لا تحتمل.. لا أحد سواي يمكن أن يتصور ما عانيته وقتها.. أنس كان شاهداً، ويبدو أن حضوره كان استفزازاً مقصوداً لي. أما أمي التي جيء بها في نهاية الزيارة الشؤم، فقد تغيرت تماماً لم تعد تلك السيدة التي أعرفها، هل هي نسخة مستعارة عنها أم هي نفسها؟! الشك ساورني. ليس لأحد أن يتصور كيف أن هذا البلد فقد فيه الإنسان حتى من يتصورهم الأعز!، الآباء والأمهات.

في الماضي كنت أعتقد أن كل شيء سوف يصبح ذكرى منسية مع الأيام وأنني سأكون قادراً على الغفران، سوف أنسى وأغفر لأبي تلك الخدعة.. لكن اليوم وأنا أمامه وخاصة بعد أن رأيت ردة فعله المؤلمة، ليس بوسعي أن أفكر بسوى شيء واحد، أنني يجب أن أواجه مصيري وحدي في هذا العالم. لا أحد لي، لا قريب، ولا أهل. ولا وطن. وبكيت كثيراً، لكن دموعي لم تنفعني، لم تحرك ساكناً في هذا الرجل الذي قلبه من صخر، كان ينظر باتجاهي ثم يضحك، يفرغ القهقات في فراغ المكان، كأنه مجنون، أو لكأن هذا البلد أجمعه قد جنّ، أم أنني أنا الذي جننت يا إميلدا.

أصرخ دون وعي بما أفعل، وأصرخ وسط نشوتي المؤلمة، في اللحظة التي أدفق فيها ماء الحياة مستمنياً، يتدفق على ظهر الحبيبة التايلندية التي صارت أو ستصير زوجة وأم طفلي، ليس مهماً، هي الوتر الوحيد والأخير الذي تبقى لي يعزف يتيماً في هذا العالم.. أحبك.. أحبك يا إمليدا، هل تحبيني؟ أم ترينني

خيالاً عابراً كالرجالات الذين عبروا على جسر جسدك في ليالي مدن الخليج القاحلة، في الفنادق والبنايات الشامخة. أحبك أرى فيك جسري أنا، أن أكون إنساناً بحق، يتوحد فينا دم اسمه الإنسان، حيث تذوب الأوطان والحدود والجغرافية ويصبح التاريخ مجرد خرافة اخترعها الكائن البشري لغايات غير نبيلة. تحاول إميلدا أن تسليني بأن تسمع لي وأنا لا أفهم من أكون ولا طبيعة مشاعري، وأبدد مخاوفي من الغيب بأن أضمها إلى صدري بقوة. مرات يكون الجمال والعاطفة سبباً في أن ننسى الأحزان ونغسل التوقعات الحزينة وإميلدا من هذا النوع، هي كائن بشري غير عادي، لكن أجمل ما فيها روحها التي تجعلني لا أرى سوى خارجي وملذاتي، ربما مغزى وجودي ككائن، حيث أنسى ما يعمل في داخلي من متاعب وظنون ومخاوف مستمرة. نقضي أنا وهي، ساعة تحت الدش عاريين تماما، لا نشعر حقيقة بجريان الزمن مثل نهر قديم في بلدتنا، تمسد لي قضيبي بقوة حتى أفرغ مرة أخرى سائلاً لزجاً يلتصق بعضه بحائط السيراميك البني في الحمام، أكون قد شعرت بنشوة عارمة معها أنسى تاريخي تماما وأوجاعي أو القدر الذي ربما ينتظرني قريباً..

ومن ثم أمضي في رواية حكايتي لها، حتى لو أنني في بعض الأحيان أكذب عليها.. إلا أن أغلب ما قصصته كان حقيقة.. لأن إميلدا بدت لي في هذا اليوم بالذات هي السماء الوحيدة التي سوف أنظر إليها، تستحق أن تكون فوقي، في عالم لم أعد أثق فيه.

٢

تذكرني هذه اللحظات الخارجة من طقس الزمن الرديء، بمارينا الأوكرانية، التي حوّمت في ظلمات الأيام الماضية لتضيئها وبقوة، ليس بإمكاني أن أتذكر الآن كم كان حجم الضوء.. ولا أتأكد بدقة هل هي التي أعادتني إلى هذه التايلندية إميلدا أم لا؟!

هما، تبدوان توأمين مخلوقتين من طينة واحدة. هل هي خيالاتي تُهوّم بذلك أم أنها الحقيقة؟! لم انشغل بالإجابة، ففي هذه الأيام أنا خيالي جداً. أنزع لتخييل كل ما حولي وليس بمقدوري أن أفرز المسافة الواقعة بين حقيقة ما أفكر فيه وما أتخيله، ما سبق أن عشته وما أعيشه. وليس لي من تحليل نفساني واضح لذلك رغم أنني أنفقت سنوات من عمري في قراءات علم النفس ولكن دون جدوى.

ها هي تطوف في فراغ الشقة ليلاً.. أعني مارينا، حبي الأول القديم وروحي الثاني.. وأم طفلي، ولدي، الذي لا أعرف مصيره الآن.. أراها أمامي، هلامات، تحوم في هذه الشقة وهي تلومني

على أنني تركت هذا الابن دون عودة للسؤال عنه، كأنها تقول لي ما ذنبه؟!.. تطاردني بأشباح تلك الأيام التي غرست في قلبي الرعب إلى اليوم. وجعلت حياتي عجيبة ليست مفهومة، مشغولة بالسؤال الأبدي والغامض، هل أنا شيطان أم ملاك؟ وأي أب هذا الذي انحدرت من صلبه، هل هو مخلوق من عجينة أخرى لا تشبه البشر الطيبين، أهلنا الذين كانوا في زمان قديم ميئوس منه الذين كانت يقصصون عنهم القصص أنهم أهل الكرم والحياء والحب الدافق للإنسان والوجود؟! هل هو لا يشبههم، لا ينتمي لهم، وهل أنا بعض من لعنة هذا الأب؟!

مارينا كانت تحبني وكنت أحبها، لا يتطلب ذلك أدلة عقلانية، هي العواطف وحدها تفسر كل شيء وتشرحه.. كان لها عقل بحجم الكون، كانت ذكية وقاهرة لكل الصعاب، تجعلك تنسى الأحزان والجراح إن وجدت وقتذاك، وقد كانت قليلة.. إلى اليوم الذي أطلت فيه الاوجاع الكبيرة يوم عرفت حقيقة خدعتي.

بمجرد أن أجلس بجوارها حتى أنسى أنني ذلك القادم من تلك المدن المحترقة بالشمس، لهذا أنا أسمر. لكن هي الأخرى كانت سمراء في بلاد باردة. وهذا ما كان يحيرني.. لون بشرتها السمراء، بعكس والدتها البيضاء جداً.

تخاطبني أمها بسودانية ملكونة.. لا أدري كيف تعلمتها. فهي لا تحكي عن ذلك.. تاريخها الشخصي غامض كملكوت الرب، يبقى سرٌ من أسرارها، تقول لي:

«مارينا تحبك كثيراً يا مرجان»

تبتسم مارينا، تقاطعها:
«أبوك لم يجد لك غير هذا الاسم.. أنت جن أم إنسان؟!»
هي وأمها، تفهمان في الجن والسحرة وهذه العوالم الغريبة، وتؤمن الأم بالأشباح الليلية التي تأتي على هيئة أجداد ماتوا منذ عقود ليرسموا لها البهجة طوال النهار بعد أن تعيش في الظلمة بغرفتها، تكلمهم ثم تخرج فجرا لتصلي الفجر. كانت مسلمة لم اكتشف ذلك إلا متأخراً. لم أتصورها إلا مسيحية أو لا دين لها، أو تعيش على بقايا دين ماركس الذي لم يعد موجوداً إلا في أذهان بعض الأساتذة بالجامعات الأوكرانية.
مارينا لم تكن تصلي ولا تصوم، جاء رمضان، بقينا سوياً في البيت نهاراً، لعبنا في الحمام وخرجنا، كما ألعب الآن مع إميلدا.. الطقوس نفسها يعاد رسمها.. التاريخ لا يتقدم. في تلك الأيام وفي تلك البلاد لا أحد يتذكر شهر رمضان كثيراً ولا طقوسه. فأعداد المسلمين قلت كثيراً كما أخبرتني والدة إميلدا، السيدة فِيرا:
«حدث ذلك منذ أن قام ستالين الشيوعي بترحيل أعداد كبيرة منهم في سنة ١٩٤٤ إلى وسط آسيا بحجة أنهم يدعمون النازيين».
لو كنت هناك في البلد عند أهل جدتي لأمي، لاختلف الوضع، ففي مثل هذا الليل المتأخر من الشهر في رمضان، سوف تدق الطبول ويجوب رجال بأزياء ممزقة الحي وهم يمدحون النبي بالأهازيج ويسرعون الخطى من باب بيت لآخر، ليحصلوا على الطعام والشراب مجاناً.

ذات يوم قالت لي مارينا:
«سأقول لك سراً لكن لا تخبر أمي!»
«أي سر.. يا ترى؟!»
كنت أظن أنني أكلم نفسي.. وكنت أسألها بصوت مرتفع ولم انتبه.
«سر.. سر.. سر.. ..»
هذه طريقتها في التشويق والألاعيب. وفي النهاية سوف تفصح عن الموضوع وبالتفاصيل المشوقة كذلك..
«أنا.. أنا.. أنا.. ..»
أخبرتني أنها هي الأخرى مسلمة.. مثل والدتها لكن ذلك لا يعني لها شيئاً مهما أو يغير من علاقتها بي.. ضحكت دون انتباهة مني وقلت لها:
«أنا لست مجوسياً يا بنت.. ما الذي جرى معك؟»
نظرت نحوي بجنون.. قبضت على كفة يدي اليمنى وضعتها في مكان حساس.. شعرت بالخجل لأن هناك من يراقبنا.. المرآة أمامي تكشف كل شيء.. وتحركت فيرا بعيداً، أظنها انتبهت وتركتنا لحالنا.
أسمع مارينا تكلمني:
«لا أتخيل حياتي دونك.. هذا هو المهم يا كافر»
تصر على أنني غير مؤمن، كانت تمازحني قطعاً.

٣

أحيانا ينتابني شعور بأن إميلدا رغم أنها تشبه مارينا، إلا أن ثمة فتاة أخرى.. فلبينية.. كنت قد تعرفت عليها هنا، قبل خمس سنوات، في هذه المدينة الساحلية أول ما جئتها؛ هي السحر الجاذب الحقيقي الذي يقترب فعلاً من مارينا. كان اسمها صعب التذكر يتكون من مقطعين متتاليين.. لكن ليس هذا مهما. فما يسيطر على دماغي الآن، الصور المتداخلة للنساء الثلاثة. كلهن شكلّن مسرح عواطفي المغتالة مع الزمن.. إحساسي بأن الجنس فيض من المشاعر، تلك الأمور الدقيقة التي لم يعلمونا لها في مدارس السودان ولا في طفولتنا. أبي كان منفتحاً لكنه لم يجرؤ ذات يوم ليحدثني عن كيف لي أن أفهم خواصي كذكر، ثقافة العيب سيطرت على علاقتنا بالبنات في الحي السكني للأساتذة الجامعيين، وقبلها في البلدة بشمال البلاد التي نقضي فيها شهور الصيف مع إجازة المدارس وحيث الأهل والأقارب الذين ذهبوا الآن مع غوائل الأيام، ليس بإمكاني أن أتذكر حتى ولو وجوه بعضهم، يصعب ذلك تماما.

في الليل عندما كنت أُدخل الفتاة الفلبينية إلى مخدعي بالشقة، أنسى أنني من أكون سوى ذلك المقهور والمهزوم الذي أنهكته السنوات وقتلته، ليس هنا سوى جسده الذي نهض من مقبرة الأمس، ومن ثم تتداعى مارينا إلى خيالي، في ذهن رجل سكران لا يعرف كيف يميز بين الأشياء ولا ملامح الناس ولا يعرف نفسه أحياناً، تتداخل عليه كل الصور والخيالات، وأضاجع هذه على أنها تلك.

ثم أرى مارينا، كأنها تعاتبني أنني خنتها، أو على الأقل أنني تركتها وهربت ولم أعد أتذكرها أو لكأنها تطالبني بالعودة سريعاً فهي في حاجة لي. ماذا تريد؟ لا أعلم؟

هل تريدني أن أسأل عن أحوال مصعب ابني. ما الذي جرى له؟

هو الآن سيكون رجلاً. سيكون قد دخل الجامعة إن مضى في التعليم ولم يتشرد، وربما كان مقاتلاً مع جيوش الانفصاليين ضد الحكومة المركزية في كييف يحلم بوطن ما يشكله في الحلم؟!

هل يا ترى يشبهني؟ وهل حمل خواص أمه أم خواصي، وكلانا متشابهان؟ ونحن في الأساس قد انحدرنا من خصية واحدة، من ماء واحد، ماء أبي الملعون.

يبدو لي ذلك العالم القديم قريباً مني جداً، وأنا احتضن الفتاة التي هي ليست جميلة إذا ما تأملتها بدقة، لكنها شبقة - كما لو أنه لم يحصل أساساً، كأن تلك السنوات البائدة قد كانت في عالم آخر لم أمر به أو برزخ بعيد في جهة مجهولة سافرت

إليها ذات حلم.
في البداية لا أعرف من يكون اسمها تلك الفتاة، أعرف فقط أنها تعمل نادلة في ذلك المقهى الذي يقع بجوار الشاطئ قريباً من الفندق الكبير الذي يرتاده مديري في القناة الفضائية ليقضي ليله هناك. لقد دعاني أكثر من مرة ولم استجب له. طبعاً كان ذلك في الأسبوع الأول والثاني من وصولي للعمل معهم، وقبل أن تسوء العلاقة بيننا ولم يعد يحكمها سوى العمل والشك المتبادل.
أخبرتني أنها ذهبت معه مرتين إلى بيته أو بالأحرى شقة خاصة به بوسط المدينة، فمنزله الأساسي يقبع في الحي الطرفي الذي يسكنه الذوات، وليس له أن يتجرأ لينقلها بالسيارة إلى هناك لأن سمعته سوف تسوء حتماً مع أول دفقات ندى الفجر في أوراق الشجر المزروع بنظام دقيق على حافتي الطريق المؤدي إلى كورنيش المدينة الرئيسي.
أخبرتني ان مراوضته تكشف أنه يمتلك مالاً كثيراً، لكنه لا يعرف أن يفعل أي شيء له قيمة، ثم تأكيدها:
«أنني لا اهتم بهؤلاء ما يهمني هو كم أقبض»
ثم تخبرني:
«أما أنت فكائن آخر مختلف يا مرجان. إنك تشعرني بالسعادة، أسافر معك إلى بلدي وأعود»
صورتها تعودني وأنا أسمع إميلدا التي تعرفت عليها بعدها، وهي تكلمني عن بلدها خولاك التي غمرها التسونامي ذات يوم، كان حدثاً مرعباً، وقد نجت هي بأعجوبة مع ثلاث من

الجارات، فقدت كل عائلتها وأقاربها. تخيلت إنساناً ليس له من أحد في هذا العالم لا من بعيد ولا قريب، ثم تذكرت مأساتي الشخصية.

قلت لها:

«نحن نتشابه في أمور كثيرة.. كلانا بلا عائلة ولا أهل»

وتسألني:

«وهل فقدتهم مثلي في زلزال وفيضانات.. سمعت أن بلدكم يموت فيها الآلاف بالسيول؟!»

ضحكت وقلت لها:

«والحروب كذلك.. الذين يموتون بالحروب أكثر بكثير»

وابتسمت لأكمل:

«والملاريا.. هل تعرفين ما هي الملاريا.. هذه الأنفوليس، البعوضة السخيفة التي تقلق من كانوا أهلي ذات يوم..»

تقاطعني:

«إذن ماتوا بالملاريا؟»

«لا أبدا.. ماتوا بتخدير عجيب. داء الهلوسة سأحكي لك عنه لاحقاً.. لقد تم حقن شعب كامل بهذا المخدر المدمر الذي يحول الإنسان إلى وحش»

تستعيد تلك الذكريات، وهي تصور لي كم هو قاس أن ترى الموت، أن تراهم المئات، بل آلاف الناس من الذين تحبهم يموتون بلا هوادة. يسقط الأصدقاء والأعداء وتتمزق الأفراح والانتظارات المؤجلة، من كان يبحث عن فرحة ومن كان سيزف في عرسه ذلك اليوم. ومن كان سيقبر عما قريب:

«أخذتهم جميعهم تلك الكارثة المدمرة يا عثمان»
كانت تفضل أن تناديني بهذا الاسم، تقول لي كل الرجال السودانيين الذين قابلتهم اسمهم عثمان، وأنني ألطفهم.. كان ذلك قبل أن أكذب عليها باسماء مستعارة قبل أن أخبرها باسمي الحقيقي، في العادة لا أقول اسمي من المرة الأولى، أحافظ على هويتي المستعارة، في أيام قديمة كنت حذرا جداً.. كنت أخاف.. اليوم أبدا لا شيء يخفيني.. لا أحد في هذا العالم يستحق أن تخاف لأجله.. البشر كائنات ضالة ومضللة وهم في كل الأحوال لا يفكرون بغير أنفسهم، الاحترام الزائد لهم يأتي بنتائج عكسية.. إذا أشعرتهم بالاحترام سيقولون إنه الخوف.. واذا خفت بحق سيقولون إنك جبان وسوف يدوسون عليك بلا رأفة.
عرفت اسمي لكنها ما زالت تجهل كثيراً من تفاصيل حياتي المشوشة والمخترعة.. رغم ذلك ولما عبثت الخمرة برأسي كثيراً، كنت قد قلت لها كل شيء وأخبرتها بشكل صريح عن حياتي القديمة في أوكرانيا، عن زوجتي التي تركتها هناك وابني وأبي الذي خدعني وأمي التي تحتضر وليس لي من دافع يجعلني أسافر لرؤيتها، فأنا أكرههها.. قلت ذلك دون أدنى شفقة ولا محبة.
وكلمتها كذلك عن العمل وأنظمته القبيحة وكيف أن مديرنا في الفضائية يتلاعب بالناس على حساب هواه، وتنبأت لها بانهيار هذه القناة خلال شهور وجيزة على الأكثر عام أو عامين. لا توجد مقومات للاستمرار. لا مصداقية في الطرح ولا جودة

فـي الأداء ولا تقييـم يقـوم علـى انتقـاء الموهوبيـن.
الـكلام نفسـه كنـت قـد قلتـه قبـل سـنوات للفتـاة الفلبينيـة، وقـد كانـت لديهـا معلومـات كافيـة عـن الحيـاة العربيـة، تعـرف أن تنطـق بعـض الكلمـات وربمـا الجمـل مـع لكنـة محببـة، قالـت لي: «الجميع في الفندق يقول إنها القناة الأولى»
الـرد نفسـه الـذي اسـمعه الآن مـن إميلـدا، مضـت السـنين والحـال كمـا هـو عليـه، الانهيـار قـد تأخـر.. وإذا حـدث فأنـا الـذي سـوف أضيـع قبـل أي شـخص آخـر.
لـم أرد عليهـا أو أشـرح لهـا أكثـر لمـاذا هـذه القنـاة ليسـت الأولـى كمـا يقـال، ولمـاذا أدمـن العـرب تزييـف واقعهـم وعاشـوا علـى الأوهـام سـدنة لهـا؟ كنـت أشـعر بـدوار شـديد.. قسـوة تزاحمنـي وأنـا غيـر قـادر علـى أن أحـدد موقعـي فـي الغرفـة ولا فـي العالـم.
كانـت صـورة ابنـي مصعـب لا تـزال تطاردنـي تلـك التـي رأيتهـا قبـل سـنوات طويلـة، عندمـا أرسـلتها مارينـا فـي مظـروف وصلنـي مـع إنسـان مجهـول رأيتـه مـرة واحـدة ولـم أعـرف سـره ولا كيـف وصلنـي أو عـرف موقعـي، ولـم أسـأله وقتهـا كعادتـي أننـي لا أدقـق فـي الأشـياء أو أتجاهلهـا، ولاحقـاً اكتشـف أننـي أخطـأت وكان يجـب أن أفعـل ذلـك، ثـم بحثـت عنـه ولكـن دون أي أثـر كأنـه مـلاك سـماوي نفـذ وصيـة وذهـب.
كنـت قـد بكيـت كثيـراً فـي ذلـك اليـوم، وأنـا أنظـر إليـه، إلـى صورتـه، كـم يشـبهني. يبـدو طويـلاً وجميـلاً ولـه عينـان تقـولان قصـة مـا، قـد تكـون هـي قصتـي، حكايتـي أنـا الأب الضليـل.
فـي تلـك الظهيـرة، قبـل أن أسـمع آذان الظهـر ينبعـث مـن عـدة

مساجد مجاورة، يخترق النافذة المفتوحة والتي أتركها لتمرير الهواء البارد، أكون قد نهضت ودخلت الحمام، أفرغ ما عندي وأترك الماء يخاطب جسدي الذي نسيت شكله بانشغالاتي بأجساد الآخرين، هوايتي في تأمل البشر أحجامهم ومقاماتهم. اكتشفت صدفة خدشاً في خاصرتي لا أعرف من أين جاء بالضبط؟ هل هو من باقي معارك ليل خولاك أم يعود لفترة أقدم؟ لم يكن لي من تحديد!!

كان دم قد تجمد في مكانه ليس كثيراً، لكنه مزعج فأنا أخاف الدماء رغم أن عملي يقوم على هذه اللعبة، رؤية الدم وهو يتدفق في الشاشات وقبل ذلك في الواقع، فكم من مرة ذهبت بنفسي إلى حرب لأكتب تقريري من وسط الجثث وأشلاء القتلى. بالأحرى أنا أخاف الدم عندما يجري في جسدي، في حين تعودت عليه في أجساد الآخرين.. اكتسبت المناعة الكافية، وفي البدء لم يكن الأمر كذلك.

تتداعى أمامي تحت الماء رحلتي إلى الحدود الباكستانية مع أفغانستان بعد شهرين من انهيار برجي التجارة في نيويورك، كنت أقف وسط النازحين الذين جاؤوا فارين من جحيم الحرب. القصف الأمريكي القوي على جنود طالبان. الحلم الأمريكي بالقبض على أسامة بن لادن. أتذكر بقوة طفلة اقتربت مني وأمسكت بي بقوة ترفض أن تغادرني. وأخيرا استسلمت لها كانت تبكي وهي لا تتكلم، وهي تخاطبني «بابا.. بابا»، وظننت أنني ربما أشبه والدها الذي فقدته في الحرب. ومن ثم اكتشفت أنها كانت عمياء. قيل أن سبب ذلك فقدانها

لبصرها، مجهول.. وقد حدث في الأيام الي خلت عندما كانت آلاف العوائل تعبر الحدود فرارا من النار.
امسكت بها واحتضنتها بقوة. شعرت معها انني كان من الممكن ان احتضن ابني الذي لم أعد أعرف عنه خبراً، ربما هي في سنه تقريباً.
كان شيخ متقدم السن يروي القصة بوجهة نظره، حكى أن قنبلة انفجرت، سقطت من السماء، ألقت بها واحدة من تلك الطائرات التي يقودها «الكفار»، رمت بها، فتناثرث الشظايا. قتلت بعض الأطفال والنساء، شيء ما وجد طريقه إلى عينيّ هذه الطفلة، ولهذا فالمسكينة لا ترى الآن.
سجلت ذلك في مفكرتي وأنا اسمع الحكايات تلو الحكايات، عن المأساة التي تكبر بداخلي، ففي تلك الأزمنة كان بعض من الضمير باقٍ عندي على ما أتصور، لم يكن قلبي قد أظلم بعد، ورسمت ابتسامة بجوار تلك الطفلة في صورة ما زلت احتفظ بها في ألبوم لتلك الرحلة، هو في مكان ما، بين أغراضي القديمة في الغرفة غير المرتبة.
انهض من تحت الدش، لأغسل فمي بغسول سائل مرطب للفم له رائحة النعناع، إذ لا أفضل السواك في النهار، أتأمل وجهي هو لي نعم، رغم أنني نسيت أشياء كثيرة عن نفسي. عامل السن بدأ يفعل فعائله، فالشيب غزا لحيتي والجبين صار متقطباً بدرجة واضحة، أصبحت جاداً كما لا ينبغي. أعرف أنه أمر مزيف فحقيقتي أنني هازل باتجاه الحياة، ليس لي من أي فكرة واقعية عن الأمس ولا اليوم. ولا أفكر ما الذي سيجري

غداً. أنا كاره لذاتي ولحياتي، هذا ما يجب أن أقوله لنفسي وبصدق.
العجيب أنهن يقلن عني أنني كائن متسامح مع العالم، ألوف وصادق ونبيل. كلهن يقلن ذلك. بنت خولاك ومن جئن قبلها إلى هنا. وزميلاتي في الفضائية بما فيهن تلك المتعجرفة التي تدعي أنني شيطان حقيقي ضلّ طريقه إلى هذا المكان الذي لا يحتضن إلا الشياطين، كانت صادقة نوعا ما، عندما تقول ذلك في ساعة صفائها، وهي تجلس قبالتي عند الساحة الخارجية لمقهى القناة بالطابق الأعلى المنفرد في السطح أمام الفراغ وليس إلا السماء، وهي تغرغر الشيشة لتخبرني:
«لا تأخذ مزحي بمحمل الجد، أنا غاوية لهذه الدعابات وبها أكسب معنى حياتي»
هي الأخرى كذلك لها قصصها، ولابد ذات يوم سوف أفهم ما الذي تخبئه إن بقي في العمر من شهور، وراءها أيضا مأساة كما تقول لكنها لا تُفصِّل ولا تحكي عنها. تترك غيوماً من الحدس والتخمينات. أحياناً وهي تنفث الدخان لأعلى تتذكر طفولة بنت تائهة في مخيم بعيد على أطراف بيروت، لشعب تشرد في الأرض، تقول ان تلك الخيام زرعت في مكان بين الأرض والسماء. طبعا هي استعارة من ضمن استعاراتها، خيالها الواسع، دون أن تكون قادرة على توظيفه في التقارير التي كانت تعدها لنشرة العاشرة ليلاً، ففي النشرة كل شيء جامد وجاف، وعندما تطل مرات لتقرأ الأخبار تصبح كائناً آخر مزيفاً لا يشبهها أبداً.

بث رابع
الأبعد.. الأكثر وضوحاً

١

شهران منذ أن وصلت إلى هنا، وأنا أتسكع في شوارع المدينة المزدحمة، أرى حولي سيارات صفراء بأبواق غريبة الأشكال، هكذا يبدو لي المشهد أول وهلة، ثم اكتشف أنني أسير بلا تركيز، أتخيل أشياء لا وجود لها، أصنع خرافات في خيالي الغريب. وكنت غالباً ما أتسكع في النصف الثاني من الليل، وأنام نهاراً إلى ما قبل الظهر بقليل، استيقظ كأنني سكران وربما كنت كذلك. قد أكون تخلصت من بقايا السهرة في المقهى أو ذلك الفندق أو في شقتي الصغيرة حيث تأتيني واحدة منهن. هؤلاء اللائي أدمنتهن، ما الذي يحدث معي، أو حدث ليس لي أن أفهم بالضبط؟!! ولم أكن باحثاً عن الإجابات في حياتي.

كنت واقعياً قد فقدت صورتي القديمة عن نفسي، أحلامي وذكرياتي، صرت مدمناً لشكل حياتي المطرزة باللعنات

المتواصلة، دون أن أجد الوقت الكافي لكي أسأل نفسي، هل أنا ملعون فعلا؟ ولم يكن لي من محرض حقيقي لكي أعرف ذاتي حقا!!

أقف من جديد أمام المرآة في الحمام فقد صارت تلك هوايتي، النظر إلى وجهي الكالح والذي يبدو لي لطيفاً بعض الأحيان.. انتهى من حلاقة ذقني التي تركتها لأيام تنمو بلا انتظام. ليس لي من قاعدة معها. أميل لتهذيبها ومرات أنسى أو أهملها.

انشغالاتي مع الحياة، دون هدف واضح، لا تجعلني أنظم أموري. لم أكن هكذا في الماضي. كنت ذلك الشاب الذي يجعل لكل أمر قدره المعلوم. كنت منظماً يضبط الآخرون به إيقاع حياتهم وهم يرون فيه القدوة، كانوا يقولون لي ذلك ويضربون بي المثل في زمان آخر يبدو كيوتوبيا غريبة ونادرة، فما الذي يجري معي الآن؟! ليس من أمامي من حل لهذه الشيفرة الإنسانية المدوخة.

أمي وهي تلقنني هجاء الفرنسية، كانت ترى فيّ أشياء كثيرة لطموحات لم تحققها في أمسها. كانت تريدني أن أكون طبيباً واخترت أن أكون إعلامياً. هي ليست رغبتي؛ بل هو أبي الذي اختار لي أن أعوض له عن الأشياء التي فقدها أو افتقدها أو كان يحن لها. ليس لي من علم ولا إفادة دامغة بخصوص ما كان يفكر فيه بالضبط.

هل أحببت عملي ذات يوم؟ بل هل أحببت حياتي أساساً؟!

ومن أكون أنا سوى ذلك الرجل الذي ينزف ذكرياته مشتعلة بالأسى، وهو يحاول أن يطفئ الماضي والحنين والألفة، هذه

الكلمات التي بات يراها مدمرة وقاسية على الروح الشفيفة. ولكني لم أعد ذلك الكائن الشفاف.

كانت أمي تقول إنني ملائكي مخلوق من نور الجنة، ومضت أعوام قبل أن تتحقق أشياء وتخفق أخرى، قبل أن يتلطخ النور بالدموع والحسرات على وقائع كثيرة حدثت لم يكن لي فيها من حيلة. لم يكن لي أن أسيطر على ما حدث، وهكذا دون إرادتي كان قد ساقني قدري إلى ما أنا عليه.

قد لا أؤمن بتلك الأقدار التي تقهر الإنسان على أن ينزلق ليكون الضحية! وما زلت لا أؤمن بذلك، رغم أنه حدث معي مرات كثيرة، في رحلاتي وتجاربي وعواصفي مع الأيام.

انتهيت من ترتيب دولابي. نادراً ما أفعل ذلك. أضع القميص الأزرق المشجر في الزاوية العليا على اليمين.. أرتب الأغراض الأخرى الصغيرة، هذا الحزام البني الذي اشتريته من المول الرئيسي في المدينة، كنت قد أهملته كثيراً وتغير لونه، أعرف أن ثمنه غالٍ جدا. لكني لم انشغل ذات يوم بالمال، عانيت مرات في سنوات سابقة وقديمة وبعدها لم تعد لي من عقدة لي أمام الدراهم.

على الرف الثاني في الجزء الأيمن من الدولاب الخشبي أندونيسي الصنع. أضع كتاباً عن نظريات الإعلام الحديث.. الشبكات الافتراضية وكيف ساعدت في بناء إعلام جديد.. أو كيف هشمت مفاهيم الإعلام أساساً.. لم أكمله اشتريته من مكتبة في المول نفسه في اليوم الثاني لوصولي المدينة الساحلية ذات الأبراج التي تناطح النيازك.

دخلت الشقة، كان الأثاث مكوماً لم يرتب بعد. الكراتين فوق بعضها، والأوراق متناثرة ومجموعة من العمال الآسيويين يعملون على تمزيف الفلين بلا حماسة سوى أنهم يفكرون في نهاية سريعة لهذا العمل المتكرر. فهم غالباً ما يمارسون المهمة نفسها يومياً وفي كل يوم بيت جديد أو مكتب. لكن هذه هي الحياة.. أليست هي الروتين وهذا العزف النشاز الذي نسميه الإيقاع والتراتيبة ونبتهج به؟! كشروق الشمس وغروبها التي لا تعرف الملل.

طلبوا بلا حياء عصيرا بارداً.. اشترطوا برودته لأن الجو كان حاراً جداً والمكيفات لم يتم تركيبها بعد في الشقة، فتحاتها ما زالت مشرعة، تدخل ضجيج الشارع وأبواق السيارات الصفراء تسمعها الأذن وهي تختلط بالروائح؛ رائحة السمك والمندي اليمني والبهار الحبشي والعصيدة السودانية والكنتاكي.

لا ادعي أنني أميز الروائح جيداً، فقط أتخيلها من خلال المشاهد التي حفظتها من الشارع أسفل البيت، فقد عرفت من خلال ست وثلاثين ساعة خلت لي في المدينة، ماذا يوجد أسفل بيتي، كل هذا الفوج من المطاعم التي تمزج ثقافة الشرق بالغرب، وتدلل على أن الشعوب أيضا تعرف من خلال المأكولات وحاسة اللسان والأنف الكثير عن بعضها البعض وتجهل بعضها أيضا.

في الصالة الصغيرة التي تجاور غرفتي، استرخي قليلاً على الكرسي القماشي الذي أهداه لي مديري في اليومين الأولين، كان قد أحضر هدايا كثيرة تافهة، منها هذا الكرسي الذي

أعجبني، فهم أنني وأنا أنظر باتجاه الأثاث زهيد الثمن أنني أفضل الأشياء الرخيصة، لكن تقديره كان مخطئاً فأنا ربما في داخلي فنان وهذا هو الاختلاف بيني وبينه، ولكن دائما يتصور هؤلاء المدراء أن الموظفين أقل منهم في الطموحات وفي الأحلام وأن نسيج حياتهم هو العطاء لا الأخذ، وأنهم في السوق يفضلون شراء الأشياء التافهة ومعادة البيع لأنهم تربوا على الحاجة والعوز.

كنا أسرة ميسورة الحال، وقد تكون بمقاييس أناس أثرياء جداً، عادية جداً.. لكن أبي كان يقول إنه اشتراكي وكنت أعرف أنه كذاب ولم يكن لي من إثبات سوى شعوري بذلك، واليوم أتضح لي صدق حدسي بعد أن انتهى بأن يصبح رأسمالياً قحاً ونفعياً لا يحترم سوى عفن الخبز.. وقد لاحظت فيه منذ صغري أنه كان يتخذ الاشتراكية كغلاف يحجب به أمراً ما غير مفهوم بالنسبة لي، ربما الفقر الذي عاشته عائلة أبيه، جدي. أنا فهمت من تجربتي أن الفقير يظل فقيراً، حتى لو أنه كسب الملايين، تظل تتلبسه حالة من الهلع والخوف من المجهول وأن ما معه من مال سوف ينفد قريباً، وهكذا يظل طوال حياته يعيش في مطاردة أشباح الفقر، لا يتوقف عن رؤيتها في يقظته ومنامه.

كان أبي واحداً من هؤلاء الاشتراكيين الكذابين، علاقته مع الفكرة بنظري قائمة على خلفية الفقر وليس على أنه كان يرغب في هذا المفهوم حقيقة. مرة خرج في مظاهرة وقبضوا عليه، كان يحمل لافتة مكتوب عليها.. «العدالة.. الخبز.. الحرية»، ثم جرت محاكمة سريعة انتهت بزجّه في السجن

لشهرين قضاهما هناك، أصبح فيهما البيت أفضل حالا مع غيابه، كما قالت أمي:
«أبوك عندما يكون هنا لا شيء يكون حاضراً سوى الجحيم والعذاب»
قلت لها:
«ألا تحبيه.. قضيتما عشرين سنة وأكثر وأنتما زوجان؟!»
صمتت.. كانت متحرجة من الرد بدبلوماسية، قالت كل شيء تقريباً:
«لولا الفضيحة، لكنّا قد...»
ثم صمتت لم تكمل، ولم أفهم إلى اليوم الباقي المقصود، يمكنني أن أتكهن به ولكن ليس بمقدوري أن أحدد مدى دقته، ما أراه هو العادات والخوف من العار في بلد كل شيء فيه يقوم على التقاليد البالية والرهبة من الآخرين.
أمي لم تكن أفضل من أبي، هي الأخرى بنظري ومنذ صغري، كذابة ومنافقة.. تدير اجتماعات ليلية في الأحياء وهي تدعو النساء إلى اعتناق مبادئ هي لا تؤمن بها. تجمع منهن أموالاً دون هدف واضح أو محدد ولا تقدم لهن شيئاً مقابل ذلك إلا الوعود، ومرات تشتري أحياناً أشياء تافهة وتوزعها لهن على أنها الثمن أو الجوائز المنتظرة قصاد نجاحهن في التدريب، وماذا كانت تدربهن لا أتذكر الآن بالضبط.. ولكن أتذكر أنني دائما كنت اسمعها تكلمهن عن الثقافة الجنسية ومحاربة الختان وكيف للمرأة تكون حرة بحق في معرفة حقها الشرعي، وهكذا تعودت على أن تخلط المفاهيم، فهي مرة تبدو متمسكة

بالشرائع السماوية والمصطلحات الدينية ومرة أخرى تبدو منفتحة وضد أي دين، مثل والدي وقتذاك.
تدخل البيت ليلاً في وقت متأخر. يكون أبي قد دخل هو الآخر من النادي. يجلسان سويا هو يتناول زجاجة العرق التي يضعها تحت السرير الخشبي، وهي تضع سفة كبيرة من الصعوت خلف لثتها، تتكئ على يدها اليمنى وتبدأ في مراقبة الفراغ، كأنها تتذكر شيء ما. لا يهتمان بوجودي. كنت صغيراً لكن ذاكرتي قوية وناقدة.
أتذكر تلك الأيام، ذلك العالم الذي يبدو لي حقيقة أكثر مما عشته لاحقا مع مارينا في كييف، فبالنسبة لي السنوات الأبعد هي الأكثر وضوحاً، تحديداً تلك التي عشتها في الطفولة وبعض من الصبا. أيام كان أبي يُدرِّس بالجامعة وكنا في السكن الجامعي، بيوت الأساتذة الجامعيين المبنية منذ زمن الإنجليز متلاصقة وصغيرة. كل بيت ليس إلا غرفتين وحمام من النوع الكريه برائحة عروش الزنك.
في الليل العفونة تملأ الحي قبل أن تأتي سيارة المجاري وتحمل الجرادل بمهارة العمال الذين يغرسون أياديهم بحثاً عن أغراض ثمينة وقعت خلسة في واحد من هذه المواعين العفنة، مرة عثر أحدهم على ساعة ذهبية، وبعدها اشتعلت حمى البحث، وقد يكون في القصة شيء من التلفيق فلا اعتقد أن أستاذاً جامعياً كان قادراً على شراء ساعة ذهبية، إنهم مجرد مدرسين وليسوا ملوك.
قد تكون قصة الساعة الذهبية غير صحيحة ومن خيال أمي

التي روتها لأبي وأنا أسمعها بين اليقظة والنوم، عندما نهضت في وقت متأخر لأرتوي من العطش. كانت السماء قاحلة بلا ضياء والليل ساكن إلا من وشوشة قلب حزين. هو قلبي. رأيت أحلاماً مزعجة أبطالها أبي وأمي وقاومت الحر وأنا أنام في الحوش الصغير من البيت. انه أعظم تجسيد على الاشتراكية هذا الحي المستفز، الذي يبدو لي كواحدة من جراح حياتي وسيئات عمري دون أن يكون لي قدرة على تشريح الأسباب بوضوح.

في الغرفة الصغيرة غير التي تجلس فيها أمي مع صويحباتها، تتراص كتب أبي على الأرض، من فوق البلاط البارد إلى سماء الغرفة الواطئة، بعضها أصابه الرهق وعطب بفعل الرطوبة وتقادم الزمن. أحياناً أقلب بعض من هذه الكتب وأعثر على أوراق وصور قديمة لوالدي وهو يتمشى في صالات مقوسة يقول إنها الجامعة التي درس فيها هناك في موسكو، حيث ذهب بأمل أن يعود ليتولى منصباً وزارياً في الحكومة بوعد من رفاقه المعلمين من العرابين الكبار الذين أرسلوه وآخرين، ولكن ما أن وصلوا قريبا من الكرملين الروسي حتى جاءهم الخبر ان كل شيء تغير وأن اتجاه الريح قد انعكس وهذا يعني أن العودة إلى الوطن باتت مخاطرة ليس بعدها مخاطرة. أما كيف سيكونون قادرين على سداد الرسوم الدراسية وتوفير لقمة العيش، فقد كان عليهم أن يعملوا ليالي في وظائف يقول أبي إنها حقيرة غير أنها مسلية مثل تنظيف الصحون في المقاهي وترتيب بيوت بعض الأثرياء في أطراف المدينة، وهناك

وظائف ليلية في المصانع، وأبي اختار الأخيرة حيث عمل في مصنع للسجائر، حتى يوفر ثمن الدخان كما زعم لي.
بدأنا البحث بين الكتب عن كتاب معين يريده أبي، قال إنه أضاعه وسط هذه الأكوام.. كان يعمل بنشاط، يبدو شاباً وقوياً ليس كما رأيته في المرة الأخيرة، يحدثني عن ماركس كيف انه كان موهوباً في الشعر، لكن ضلّ الطريق إلى اكتشاف سوء توظيف رأس المال في الحياة الإنسانية، يقول لي:
«ربما لو لم يهجر الشعر لكان مفيدا بدرجة أفضل»
كانت هنا لوحة لهذا السيد في غرفة أبي لكنها ضاعت وراء الكتب المتكومة، ولما رفعنا بعضها مرة في رمضان عندما كنا نبدد النهار الطويل بترتيب الغرفة أنا وهو، في انتظار أذان المغرب، وجدنا أن نصف اللوحة الملونة قد أكلتها الحشرات لم يبق سوى الرأس معلقاً تحت مسمار قديم بخيط دبارة.
أحياناً أتلصص على هذه الكتب واقرأ بعض منها، ما بين ابن عربي والحلاج والنفري وماركس وجوته ولينين والطيب صالح وجورجي آمادو وميلان كونديرا وامرؤ القيس ومحمود محمد طه وابن رشد وفرج فودة وعبد الخالق محجوب وسيد قطب كذلك.
كان صعب علي أن أفهم اهتمامات أبي بالضبط، والغريب أنني لم أر أبي يفتح واحداً من هذه الكتب، ربما قرأها في الماضي قبل أن أولد. لا أدري. فأثناء وجوده في البيت إن قرأ شيئاً، فسوف يطالع في الغالب، بنظارته السوداء عريضة الإطار، الصحيفة الوحيدة التي يأتي بها معه من ضمن صحيفتين فقط تصدران في البلد، ويكون عادة ممسكاً بقلم جاف يخطط سطوراً كثيرة

علـى الصفحـات لا أعلـم دلالتهـا، وفـي النهايـة يرمـي بالصحيفـة دون أن يعلـم كـم خطـأً قـد رسـم.

فـي الليـل الثانـي يسـأل أمـي عـن صحيفـة الأمـس وأنـه حـدد بعـض النقـاط ليضيفهـا لمقـرر الطلبـة فـي الكليـة، يحدثهـا عـن كيـف أن أفضـل طريقـة لتعلـم العلـوم السياسـية هـي مناقشـة القضايـا اليوميـة مـن خـلال الصحـف. والدتـي تسـمع ذلـك ولا تهتـم بسـوى أن تأخـذ نومـة القيلولـة وهـي عائـدة مـن المدرسـة تمشـي متثاقلـة، إلـى أن تنـام دون أن تكـون قـد انتبهـت إلـى أن رأسـها قـد سـقط على اللحاف وهـي تترنـح مع صوت المديـح المنبعـث مـن الراديـو الكبيـر فـي النافـذة.

٢

أنهيت حلاقة ذقني، أبدو أكثر وسامة وأقل سناً من عمري الحقيقي، وقبيل العصر، أكون قد جهزت نفسي للخروج إلى الفضائية. إلى ملعب الشياطين كما تسميه مايا، اللعوبة، كما يقولون عنها. لكنني رأيتها محترمة جداً. نعم كنت أفكر فيها أحيانا وتطاردني صورتها وهي تجلس بجواري في المقهى مع رائحة الشيشة أو في ساعات وحدتي ليلاً بالبيت. لكنني لم أقدر يوماً على مفاتحتها بأي رغبة خبيثة رغم مداعباتها المكشوفة معي ووصفها لي بالشيطان الأكبر. وهي كذلك لم تقترب من أي مساحة متعلقة بهذا النوع من الأهواء الشخصية الخاصة، رغم أن زميلنا الياس الصومالي كان يقول عنها انها تعرف من تختار من الرجال، وكان يشاطره آخرون، لكن لا أحد يملك الدليل على أنه جربها فعلاً.

أحاديثهم عن النساء والزميلات تشغل وقتاً طويلاً بلا حرج، لاسيما في المقاهي البعيدة والنائية التي يطلقون كازينوهات الشياطين، والتي لم تتعود المذيعات ولا المبرمجات أن يأتين

إليها، لا واحدة تغامر بالوصول إلى هذه المواقع بالتحديد، أما في وسط البلد فلا حرج، حيث تقف مايا وهي تهبط من سيارتها ذات الدفع الرباعي، تتهدج وتضرب بحذاء عالٍ على الأرضية المبتلة بفعل رزاز مطر صناعي، بزعم أحد الزملاء في قسم الأرصاد أن الدولة تجرب ما يعرف بالاستمطار الاصطناعي وان التجارب تقوم على تعاون مع شركة هولندية متخصصة في هذا المجال. ونحن خارج العمل لا نهتم كثيراً بما يجري في الداخل، لا أحد يتكلم عن تقنيات الصوت ولا التقارير ولا رداءة البث أحياناً بفعل التشويش المتعمد من جهة لم يفصح عنها، يقول المدير انهم يعرفون من تكون وسيعلنون عن ذلك في الوقت المناسب في مؤتمر صحفي.

أفكر عجولاً أن ينتهي اليوم، أن يسرع المساء إلى حتفه لأهرع إلى المقهى قليلاً، ومن ثم إلى إميلدا لاشك أنها تنتظرني، فمنذ أن تعرفت عليها تركت تلك الفلبينية، إنه هوى التغيير وربما النسيان السريع، بعض من صفاتي التي لا أفهمها بالضبط.

تقيم إميلدا في بناية حديثة مع مجموعة من بنات شرق آسيا، بالتحديد من بني جنسها من تايلند، وفي الغرفة المجاورة لهن شلة أخرى من تايوان وأخرى من الفلبين. أعرفهن جميعاً ويعرفن ذلك الأسمر النحيل ذي الأعصاب الباردة الذي يأتي بعد منتصف الليل يدق الجرس مرة واحدة لا يزيدها، يقود حبيبنه كما يطلقن عليها ويهرع بها إلى مثواها، مثواه الأخير. مع الأيام وبعد أن صارت إمليدا هي الأخرى نسياً منسياً إلى أن عادت علاقتنا لاحقا، بتن الآسيويات يعرفن، أنه ومن خلال

ما اشتهر به هذا الأسمر النحيل، فهو لا يجلس مع الواحدة منهن، سوى ليلة وبعدها سيفكر في غيرها، لهذا يبالغن في الثمن ويتمنين عليه، وهو ليس عنده مشكلة مع المال يدفع ببذخ وأكثر من المعهود، كريم جداً. عرف بذلك. ولو كن هؤلاء الآسيويات مثقفات وفقيهات في التراث العربي لأسمينه الأسمر الطائي، هؤلاء «العاهرات»، فهن لا يخجلن من الحديث عن التعريف الدقيق لطبيعة مهنتهن..

الآن وبعد مضي السنوات.. وفي هذه الليلة سيتذكر الأسمر القديم إمليدا، سيتذكرها مع رغبته في كسر الألم النفسي والجرح الذي أصابه جراء المرض اللعين.. وسيعرف تماما أنها هي وحدها ستكون قادرة على صنع الشفاء المؤقت، تلك المخلوقة، ذات القوام الممشوق والمشية المتعجرفة نوعاً ما، تلك التي تمتلك إحساساً يقول لها كما لو أنها ملكة متوجة في البلاد البعيدة التي جاء منها، أو ربما هو..

أعني أنا الذي منحتها بخيالي هذا الإحساس، توجتها في ذات ليلة بحكاياتي الملفقة معبودة نوبية في بلاد العم أركاماني النوبي ذلك الملك الذي عرفته جيداً من خلال بعض كتب والدي القديمة والمتراكمة.

ذات مرات كنت أتمنى لو أنني درست التاريخ بدلاً عن الإعلام وتخصصت بالتحديد في تراث أجدادي من ملوك النوبة القدماء، لكن حتى هذه الأمنية تمضي كغيرها من أمنيات كثيرة، فليس لي من خط معين في التفكير وليس لي من استقرار بخصوص ما أفكر فيه، ربما هي مجرد تهويمات لرجل

سكران يمتطي صهوة أنثى عارمة، يراها ملكة دون أن يدري أنه يصنع من خياله ممالك لا وجود لها.
وأنا أعيش في خيالاتي مع إميلدا التي تنسيني من أكون، ألفق لها قصة أخرى عن سيرتي المتخيلة، رغم أنني في مرات سابقة رويت لها القصة كاملة، تلك التي هي الحقيقة، بدون رتوش. على أي حال لن تقول لي إنك كاذب، ستمضي في السماع لي وبعمق. هذه ميزة لها، ان تسمع لا تملّ السماع أبدا. وأخبرها كيف أنني درست التاريخ في جامعة الخرطوم وأنني ركلت كل شيء بعد أن ضاق بي الحال وهجرت البلد لأكون منذ عشر سنوات هنا في هذا البلدة، أعمل في صحيفة مصصحاً لغوياً إلى أن عثرت على العمل بالفضائية حيث أنا الآن.
أكلم إميلدا أنهم في الصحيفة، كانوا يدفعون لي جيداً بحكم أنني موهوب كما يقول عني مديري، لكنني لا أحفل بتقييمه لأنني أعرف نفسي جيداً، وأدرك أنني يمكن أن أحصل على عمل في أي موقع كان لو أنني وصلت لخلاف معه، لكن لما سنختلف وأنا أخلص في الواجب وأكثر وابتكر الأفكار لتطوير العمل في الجريدة.
وتسألني:
«ولكن ما الذي جاء بك للعمل في الفضائية؟»
«آه.. سأكلمك عن ذلك غدا..»
لا أجيب على سؤالها، وغدا سوف أنسى حتما.. باتت ذاكرتي خربة جداً. بت هائماً في حياتي المتنازعة بين الأمس واليوم.. وأنا أحس بأن العمر يتقدم بي ولم أفعل بعض من أمنياتي

القديمة، ولم أحقق أي هدف، حتى لو تكن تلك الأهداف واضحة الآن، فقد نسيتها كأشياء كثيرة في حياتي.
اليوم.. وهي بجواري.. إميلدا.. أتذكر معرفتي الأولى بها.. أرغب في أن أكون صادقا معها إلى النهاية، ستسمنعني جيدا.. ربما ارتبط بها، ولكن سوف أكون قد خنتها إن لم أخبرها بحقيقة مرضي، ولهذا كلمتها، أنني أنا الآن أدنو ربما من نهاية محتملة، ربما تبقى لي شهران لا أكثر، لا أعلم بالضبط!!
وقلت لها إنني أرى الحياة كما لو أنها حلم قاحل، فسرعان ما يرحل ويستيقظ الإنسان على الحقيقة في الجهة الأخرى من الوجود، ضفة الموت الغامضة بكل ما فيها من سلوان في بعض الأحيان، قد يعوض الراحلين عن شظف الحياة وضيقها المستمر. كنت أكلمها وأقول لنفسي أنه لا شيء سواها هذه الآسيوية سوف يغسل جراحي.. أشعر بذلك، اشتم فيها رائحة مارينا وأرى أن مصعب الآخر سوف يأتي منها حتى لو بعد موتى، وسوف يحمل اسمي. لشيء غامض يصعب فهمه أو تفسيره خالجتني هذه المشاعر وحاصرتني هذه الرغبة، أن أعود أباً من جديد حتى لو أن الحلم سيكتمل بعد نهايتي.
وقلت لنفسي إنني لن استسلم أبداً.. فمنذ أن عرفت بخبر هذا الداء العضال الذي بدا يتسلل لدمي، ولكن للأسف اكتشفته متأخراً، صارت أموري ليس كالعادة، مثلاً.. يعني أصبحت كسولاً وقاسياً مع نفسي بدرجة أكبر، وإذا كان الوضع الطبيعي لاكتشاف المرض مبكراً يمكن أن يقود للشفاء، إلا أنني مع الإهمال الذي عشته طوال حياتي وكوني لا أهتم بالعناية

الصحيـة أو زيـارة الأطبـاء، فقـد راكـم ذلـك العنـاء، حيـث تفجـر الأمـر مـرة واحـدة فكانـت الخيبـة والإحسـاس باليـأس الـذي أعيشـه رغـم إفادات الطبيـب الهندوسـي عـن المعجـزة التـي يمكـن أن توجـد مـن خـلال رغبتـي وتفاعلـي الإيجابـي مـع الحيـاة.

أحيانـا أشـعر أن إميلـدا هـي المعجـزة الباقيـة لـي!! لكـن لا أعـرف جيـداً إن كانـت سـتغامر لأجلـي.. لا علـم لـي!! وهـي لـم تبـد أي مشـاعر إيجابيـة ولا سـلبية لا شـيء سـوى الضـرب المسـتمر بصفحـة يدهـا علـى مؤخرتـي وهـي تغلـق البـاب وراءهـا لتتركنـي وحيـدا مـع حيرتـي ومعاناتـي..

سـأتركها هكـذا لأسـبوعين علـى الأكثـر ومـن ثـم سـأطلب منهـا قـرارا نهائيا..

بث خامس
الأسئلة الحائرة

١

لا أعلم بالتحديد.. ولكني اعتقد أن تغيبي عن العمل لعدة أيام كان السبب المباشر تقريباً في إعفائي، مع تعقد وضعي الصحي، حيث أعاني إعياء مستمرا وعدم قدرة على التركيز. إنه الداء اللعين. لا أحد بقي معي الآن سوى إميلدا تعيننني بجد وتثبت أنها أطهر إنسان على وجه الأرض، تخرج في الفجر الباكر لتعود في المساء. ولا أعرف ماذا تعمل بالضبط! لكنها تعود بالمال وبدأت تصرف عليّ بعد أن أوشك ما معي من مدخرات على النفاد خاصة أن المستشفى والعلاج بات يأخذ أموالاً مضاعفة، وبطاقة التأمين الصحي التي كانت معي من عملي انتهت صلاحيتها منذ أسابيع.

الطبيب الهندوسي صار مراوغاً، يحاول تجنب مقابلتي بأي شكل كان، وكأنه يرى أنه قد أخطأ أو أن نظرياته حول الشفاء الذاتي لم تعد مجدية، هل أدرك أنني بتُ بائساً لا مال معي

ولهذا آثر أن يركلني بعيداً، ربما كان ذلك السبب الأوضح.
الآن أصبحت ذلك الطريد من مهنتي، وعمّا قريب من العالم، وأيضا ربما من قِبل إميلدا إلا إن كانت تحبني فعلاً هذا ما عندي كي أكلم به روحي، وهي التي لم تقرر بعد إن كانت ستستجيب لطلبي أم سوف تنساه ليكون وجودها بجواري، مجرد تعاطف لا حسب، رغم عدم يقيني الكافي بأن البشر يمكن أن يتعاطفوا مع بعضهم البعض لأي سبب كان ان انتفت مصلحة معينة أو رغبة مكبوتة.
ذات نهار دخلت علي سوسن شعراوي، لا أعلم كيف تذكرتني، طرقت على الباب لأن الجرس معطل، فالكثير من الأشياء في عالمي بدأت تفقد صلاحيتها دون قدرة على إصلاح أي شيء، المال وكذلك اليأس. إلا أن تنهض إميلدا أحياناً لتتطوع وتقوم بأعمال معينة في البيت كأن تصلح الصنوبر المعطل بنفسها أو تعيد مكبس ماكينة الحلاقة التي اشترتها لي لوضعه الطبيعي، بعد أن حدث فيه خلل ما. تفعل هذه الأشياء بدقة تامة وبحب كجزء من نسيج اندغامها مع العالم وألفتها الخاصة التي تبحث عنها وهي لا تتذكر سوى أيامها البعيدة الخالية من الأمل، أخبرتني أنه لا أحد تبقى لها في هذا العالم، ورغم ذلك ظلت غامضة، ربما غموضي من طرف آخر يجعلني أراها بهذا الشكل، فأنا وأن كلمتها بأمور فقد أخفيت أخرى وخلطت بين الواقع والخيال، اعتقد أنها ما زال لديها الكثير فهي لم تخبرني إلا باليسير من مخزون قصتها المجهولة بالنسبة لي.
استقبلت سوسن بوجه يحاول الابتسام والتماسك أمام اليأس

والألم ما أمكن، كان الشحوب الذي أحسه يسيطر عليّ وفقدت قدرتي على أن أكون خفيف الحركة ورغبتي في التماهي مع الأشياء، حتى لو بذلك الشكل البارد الذي يحكي نوعاً من المشاعر الغريبة وغير القابلة للتفسير المباشر، لأناس كانوا يعتقدون أنهم فهمونـي ذات يوم.

جلست سوسن بحافة الأريكة الصغيرة لتخبرني:

«الزملاء يريدون أن يقدموا عوناً لك في محنتك»

لم أتكلم، انتظرت لأسمع منها باقي الحبكة السحرية التي جاءت بها.. أخبرتني:

«سيقيمون لك حفلاً نهاية الأسبوع وسيحضره المدير ورئيس مجلس الإدارة لا تتأخر.. الكل مهتم بأمرك»

لا أعرف كيف لي أن أصدق هذه المزحة، يطردونني من عملي ويقررون أنني غير صالح ومن ثم يريدون تكريمي بالأحرى المشي على جثتي باسم حفل وداع خادع.

قلت لها:

«أنا ممتن لهم جميعاً.. أبلغيهم لا حاجة لي بهذا الحفل»

صمتت قليلاً.. لا كعادتها تنظر إلى وجهي وبكت.. كانت تبكي وهي تذرف دموعها، كالتي ذرفتها يوم كانت تقرأ نشرة الأخبار عن كيف قتلوا عشرات الأطفال داخل مدرسة ابتدائية في إحدى قرى باكستان الحدودية، ومن ثم خرجت من الاستوديو إلى الحمام تغسل وجهها وبعدها واصلت يومها تمازح الزملاء وتضحك وكأن شيء لم يكن. بهذه القاعدة التاريخية فهي سوف تخرج من هنا وتنسى من يكون مرجان، أنا لست مهما

بقدر ما قد أكون مصدرا للشفقة لبعض من الوقت.
حاولت إقناعي.. أخيراً قلت لها:
«دعيني أفكر.. حالما أصل لقرار مختلف سوف اتصل بك.. أتركي لي رقم هاتفك»
قالت لي:
«هو معك..»
أوضحت لها وأنا أشير إلى الهاتف المرمي على الطاولة الخشبية القصيرة بجوار كمية من الكتب ومغلفات الأدوية وأوراق المواعيد الطبية للعلاج شبه اليومي:
«لم يعد الهاتف يرن.. ولهذا استغنيت عن أغلب إن لم يكن كل الأرقام»
لم تعلق.. كانت قد مسحت دموعها، نهضت بعد أن سجلت الرقم على جانب من غلاف كتاب هتلر، كفاحي، الموضوع على الطاولة، وأغلقت الباب وراءها.
فهمتُ من ربع ساعة جلستها معي وبين نشيجها وحسرتها المفتعلة أم الجادة، أن إعفائي عن العمل لا يتعلق بمرضي، فربما أشفى وأعود، لكن هناك أسباب أخرى، هذا ما يتردد في الفضائية بين الزملاء.
حاولت أن أخبرها أن ذلك ليس مهما الآن فما حدث حصل، فالمهم بالنسبة لي أنني الآن بلا عمل وفي انتظار الغموض القادم، ربما السفر إلى سردايب الرب.
قالت لي ربما بشيء من الدبلوماسية يصعب أن أحدد طبيعة مشاعرها، كما أني غير مهتم بذلك كثيراً:

«صدقني هناك سبب ما آخر غير للاستغناء عنك لكنه غير معروف، لو كنت أعلم قطعا كنت سأخبرك به»
لو كنت بكامل لياقتي القديمة لضحكت.. وآثرت أن أصمت، فهذه الظروف تعلم الإنسان السكوت ليكون أفضل بديل لترهات الكلام.
واصلت تتكلم بصعوبة:
«تخرصات كثيرة وكلام قيل.. ولكن ليس لي أن أفهم با لضبط..»
ولمحَّت لي وإن لم تقل بالشكل الواضح:
«حياتك فوضى. أنت إنسان قد لا تكون..»
فهمت ما تعني.. وكنت سأقول لها.. إن هؤلاء الذين يريدون أن يرتبوا العالم بناء على قواعد الأخلاق هم أكثر الناس بعدا عنها، أتعنين هذا المدير المتعجرف والفجّ.. من متى عرف أن يكون أخلاقياً ليتدخل في حياتي الخاصة؟!..
وتوقفت عن قول أي شيء.. إلى أن خرجت وانغلق الباب تلقائيا بأنين، بدا لو كأنه يتعاطف معي بجدية أكثر من العالم البشري المزيف.

٢

يقال إن علة إعفائي قد كتبت وسجلت في ملف قديم تم دسّهُ في درج بطاولة الرجل الذي استقبلني في البداية بزهو وانتصار، وهو نفسه الذي قرر مصيري فيما بعد، إذ ركل بكل سنوات عملي وإخلاصي وما حققته للقناة التلفزيونية، ليتركني أواجه مأساتي وحدي. ولو كان وضعي طبيعياً لكنت قد سافرت بأسرع ما يمكن إلى مكان آخر فأنا موهوب في عملي ويمكنني العثور على البديل بسرعة أو هكذا أظن، وعلى أي حال فالآن لا أحد سوف يقبل بماكينة معطلة، ففي عالم رأسمالي وقح لا قيمة لك إن فقدت قدرتك على العطاء، لا أحد سوف يلتفت إليك.

صارت تضاريس يومي قاسية، ومملة، أقضي معظمه في الشقة لا أخرج إلا نادراً وللمستشفى فقط. وأحاول أن أتخفى ما أمكن بأن أغطي رأسي بقبعة كبيرة وأسير بعيدا عن الأماكن التي كان فيها أناس يعرفونني، كبائع الخردوات الذي كنت اشتري منه أغراضي الأسبوعية أو المتجر الذي أحصل منه على بعض الخضروات والحلاق.

وسط هذا الملل كان النوم يداهمني كثيراً وأنا أحاول قراءة شيء أتسلى به، أو أرسم مرات رغم أنني عجزت تماما. وبين فينة وأخرى أخلد لنوم سريع يداهمني فأرى نفسي أتجول في الشوارع في انتظار سفري للعمل في محطة فضائية جديدة ولكن قبل ذلك يكون عليّ أن أقضي الوقت في ما يسليني وينسيني الألم الذي يسكنني، ولم يكن للحزن في هذا الحلم علاقة بمرضى خارج الحلم، ففي النوم كنت معافى وطيباً.

استيقظُ على صوت إميلدا تكلمني لتناول بعض الطعام الذي أحضرته معها من الخارج، تعرف أنني أحب الوجبات الجاهزة غير أن شهيتي لم تعد كما كانت.

مع ندائها كأنني أسمع صوت آخر، مصعب ابني.. مصعب الجديد القادم من بطنها الذي بدأت يتكوّر فعلياً، دون أن أعلم إن كان هذا التكوير يتعلق بي أم بكائن آخر؟! هل توقفت عن صحبة رجال آخرين وتفرغت لي بجد أم مستمرة في ملاحقة رزقها؟ أم لها عمل آخر حلال في النهار؟ لم تكن لتتكلم عن هذا الجانب، ولم يكن لي أن ألاحقها بما لا ترغب فيه.

أحاول أن أتخلص من نظرتي السلبية لها، والتي لا أقدر على طردها من تلافيف روحي البائسة، فقد بات الشك ثمة حياتي!! التجارب المؤلمة والأقدار وسخافة البشر تجعلك ترى كل الأشياء بعين الريبة، حتى أقرب الناس إليك، لا تعد تثق حتى بوجهك وحقيقته أمام المرآة، هل هو قناع أم وجه ذلك الكائن الذي يسكنك ويصرخ بداخلك.

كمن يعيش في عالم مفقود أو برزخي كأنني أرى طفلاً يحوم

أمامي، في الرابعة أو الثالثة من عمري، يتشبث بي، يكلمني:
«بابا.. لن تتركني وحيداً..»
أقول له:
«ها هي إميلدا.. ماما معك..»
من ثم أسمع صوت ريح قوية في الخارج كتلك التي تضرب نوافذ الغرفات في بيوت البلدة القديمة، ولا أعرف تماما أين هي اللحظة التي أعيشها بالضبط؟ يختلط علي الزمن والمكان.. وتتداخل الصور أمامي.. أرى امرأة تقف لتطعمني من يدها وبطنها الممتد يلتصق بي. امرأة لا تشبه نساء البلدة وأهلي.. من هي ومن أنا؟
وأتخيل وربما حدث ذلك ليس بإمكاني أن أحدد بالضبط، أنني أقف بجوار واحد من تلك النوافذ، أقوم بإغلاقها بإحكام ولكن بصعوبة فهي قديمة ومتهالكة، وكانت هناك امرأة تقف قريباً مني وطفلة تجري نحوي لتخبرني أن السماء قد أمطرت في الخارج..
«بابا.. المطر جاء..»
هل هذا أنا فعلاً.. اقترب أكثر من المرأة لأراها تلك التي صحبتني مرة في أحد رحلاتي من دولة آسيوية إلى الخليج.. قالت لي إنها تعمل في منظمة للعون الإنساني تقدم المعونات للاجئين السودانيين في تشاد وأنها تحضر كذلك للدكتوراة في جامعة أمريكية لا أتذكر اسمها الآن.. وأستطيع أن أتذكر أن اسمها ميرامار.. وهو اسم غير شائع يذكرني برواية نجيب محفوظ التي تحمل الاسم نفسه..

كنا قد عدنا للخرطوم ومن ثم لبلدتنا سوياً، حيث كان زواجنا.
تضرب إميلدا على رأسي لتوقظني.. لكنني لا أحلم.. أخبرها عن ابنتي مريم.
تبدي استغرابا:
«مريم!!.. أنا أعرف مصعب»
تسألني لماذا لم أحكي لها من قبل عنها. ولما أخفيت خبر رحلتي إلى السودان وزواجي الذي لم يستمر سوى شهرين والذي كان نتيجته مريم ومن ثم طلاقي من أمها ميرمار التي لا أعرف أين هي الآن بالضبط..
أقول لها دون أي مشاعر واضحة مني:
«هذه قصة قديمة كحكايات كثيرة يا إميلدا.. لن تكون مهمة اليوم على أية حال»
وتسألني إميلدا:
«وأين هي مريم الآن؟ كمصعب لا تعرف عنها أي شيء؟!»
«آه.. كان بإمكاني أن أعرف يوم كنت في الخرطوم في رحلتي الأخيرة.. كانت فرصة ولكني...»
قلت ذلك ولم أكن متأكداً..
لم أكن قادراً بالضبط على وصف حالتي.. أقول لها نسيتها.. كرهتها لأنني كرهت أمها المعقدة.. التي بدت لي في البداية راقية ومتعلمة وفي النهاية اكتشفت أنها أكوام من الأمراض النفسية والحرص على تقاليد بالية، عانيت معها لشهرين وفي النهاية كان قراري ذات نهار لأتركها وأمضي لسبيلي.
تكلمت بحقيقة ما فكرت فيه في الخرطوم:

«ليس من دليل على أن مريم تعيش في السودان.. قد أبحث عنها دون جدوى ولكن أين وكيف؟»
صمت قليلاً لأقول:
«.. أغلب الأحيان هي مع أمها في أمريكا أو لندن أو تشاد.. لا أعرف يا إميلدا.. لا أعرف..»
أتخيلها فتاة في سن المراهقة تبحث عن أبيها الضائع إن كانت أمها قد أخبرتها بالحقيقة ولم تقل لها أنه مات منذ سنوات طويلة.. ولكن ليس لي أن أمضي في تخيلاتي، فقد كان صداع قوي يدور برأسي وأحزاني تتدفق مثل نهر غريب يصعب التعرف على مصدر منبعه أو مصبه. هل هذه حياتي أم حياة كائن آخر يسكن جسدي؟ أم أنه هذا المرض الذي سوف يقضي علي خلاصة أوجاعي ورحلتي مع القسوة والتيه في هذا العالم وكوني إنساناً غير صالح للبقاء في هذا الكوكب؟ وهل أنا أسوأ البشر ليكون هذا مصيري؟ حتماً هناك من هم أكثر سوءا مني.
نظرت نحوي إميلدا، أرى في عينيها عطفاً حقيقياً.. قالت لي:
«أعلم أنك تعيش حالة نفسية تجعلك تتخيل أشياء قد لا يكون لها وجود أساسا..»
ثم مضت تساءلني:
«أنسى أن مريم كانت ذات يوم واستعد معي لنستقبل طفلنا.. المرأة عندنا إذا حملت من رجل ستقدسه كإله حقيقي.. لن يكون لك غيري في هذا العالم وإلى ما شاء الرب.. لا تقلق..»
واحتضنتني بقوة جداً.. وأنا أحاول أن أفهم هل حقاً كانت لي

ابنة اسمها مريم!!.. هل حقا أن ميرامار كانت زوجتي ذات يوم، تلك الشابة الطويلة التي كانت تجلس بجواري في الطائرة وتكلمني بطريقة هامسة كان فيها شيء من سحر لا يمكن تحديد مصدره.. أنا متأكد أن تلك الرحلة كانت وأن ميرامار لم تكن خيالاً أبدا، فقد كانت أيضا هي الأخرى نسخة رائعة من مارينا، جرحي الحقيقي في هذا الوجود.

٣

تغلق إميلدا الباب كعهدها في هدوء، بحيث لا تترك وراءها سوى الظل الذي يستقر لدقائق في مكانه على الحائط قبل أن يختفي رويداً وهو أمر لم أجد له تفسيراً، إلى أن فهمت أن السبب يتعلق بالستارة المعلقة وراء الباب التي تنزلق تدريجياً حتى تكون قد اعتدلت لوضعها الطبيعي، في حين أن إميلدا تتركها شبه معلقة بين السقف والأرضية.

هي أحياناً لامبالية لا تهتم بالأشياء ولا ترتيبها، كما علاقتها مع القدر، وهي هنا أيضا تشبه لي مارينا بقلقها الطفولي الذي هو أيضا يشبه قلقي. ألسنا منحدرين من نطفة واحدة من ذلك الأب الذي قهرنا وجعلنا نحتضن بعضنا ونتعذب، وتلك السيدة التي ماتت قبل أن تفضح عن سرها، تاركة وراءها غموضاً، فهل كانت تعلم وسكتت أم أنها لا تعلم.. وأنا نفسي وهروبي هل كان مبرراً، لماذا لم أركل بالتقاليد والأعراف والشرائع وأبقى مع من أحب بجوار مارينا وابني؟!.. هل كنت كائناً آخر يصعب التكهن به، وهل حياة الإنسان تقلبات وأطوار يمر

بها، لا يعرف الحقيقة التي كانها قبل يوم بعيد أو قريب؟..
وقفت أمام ذلك الأب في ذلك النهار الخرطومي، كنت أتصبب عرقاً، وكان هو غير حافل بشيء، غارقاً في غموضه المريب.
وكنت استرجع أيام طفولتي ونحن في المخزن معاً نرتب الكتب أو نقلبها بحثاً عن ورقة ضائعة أو كتاب قديم.
سألته:
«لما حدث ذلك.. لما كان يجب أن تعذبني؟»
لم يتكلم.. كان ينظر إلي بوصفي الضحية وأحياناً بوصفي المجرم وكان من المستحيل عليّ أن أفرز الصورة التي يحملها ذهنه، ما هي بالضبط!.. كان قادراً على إخفاء مشاعره بقوة، مهارة قديمة لم تسلبها تصاريف الأيام منه.
كدت أقول له هل أنا ابن سفاح حتى تبتزني بهذه الطريقة؟ هل لأنك كافر لا دين لك حتى لو حملت مسبحة بيدك تتسلى بها؟ وأنت أبعد الناس عن حقائق الله؟
كان يحملها فعلاً ولم انتبه لذلك منذ البداية!
ولو كنت حقاً ابن حرام، فلما تقوم هذه الأم هي الأخرى بمعاملتي بهذا الشكل القاسي، يا رب، ما يحدث معي، أليست هي أمي؟!..
أكلم نفسي الآن وأنا استرجع تلك الخيالات تطاردني وليس بوسعي أن أتخلص منها، ويدخل الشك قلبي من كل جهة، فربما حتى أمي لم تكن أمي، فأنا لم أكن شاهدا على خروجي من صلبها ذات يوم.
قال لي الرجل الذي أعادنا للفندق عصراً، إن أبي أصبح من

كبار القوم في البلد يأمر وينهي وأن كلمته مسموعة ولو شاء أن يعينني وزيراً له ذلك، وخلت حتما أن الرجل يسخر مني حتى لو أنه يقول الحقيقة، ولا أدري عن السبب الذي جعلني أسأله:

«ولما يعاملني بهذا الشكل؟»

كان سؤالا غبياً لا معنى له، جعل أنس يضحك في غير مكان الضحك، ثم اعتذر لي لاحقاً.

أجاب الرجل سريعاً قبل أن يهرول مسرعاً بعيدا عنا، ليتركنا تحت شجرة نيم أمام الفندق المتهالك:

«لا علم لي.. نحن ننفذ الأوامر فحسب»

لم أعرف طبيعة عمل والدي بالضبط، فهو ليس له منصب واضح يظهر به في وسائل الإعلام، والأغرب بالنسبة لي كيف تغير فكره هكذا من اليسار إلى اليمين؟ كيف نسي تاريخه مع ماركس ولينين وكيف أصبح خادماً لمن كانوا أعداؤه بالأمس؟!.. ومجموعة من الألغاز الأخرى التي دفنتها وراءي في الخرطوم دون أن أجد تفسيرا لها.

٤

نعم إنحدرنا من الترائب نفسها، مارينا لم تكن تعلم طبعا. كان الأمر صادماً بالنسبة لها، يوم جاء ذلك الصديق الزائر إلى أوكرانيا، كان أبي ورفاقه يلقبونه بالمعلم الكبير، وقضى أياماً بيننا في البيت، قبل أن يعود لموسكو ومن ثم إلى فرنسا حيث يقيم هناك. عداوته مع أبي وخصامهما بعد صداقة قوية، ربما كانت سببا مباشراً في أن يفجر الأزمة التي شرخت حياتنا أنا ومارينا، لكن الرجل كان صادقاً فالفحوصات الطبية أثبتت كل شيء، أننا أشقاء، أنا وهي، ليس من سبيل لمحو ذلك.

لجأ المعلم الكبير إلى التاريخ ليمارس الانتقام، حدثني عن أم مارينا وكيف أنها أحبت أبي وتشبث بها وأنه أنجب منها مارينا دون زواج حقيقي رغم أن كلاهما كان مسلماً بطريقته، ليس لأنها تنحدر من أصول مسلمة فثمة مسلمين في الاتحاد السوفيتي بجمهورياته العديدة، إنما لأنها أحبت الإسلام من خلال ما قرأت عنه، كيف أنه يدعو إلى اشتراكية بين البشر، تلك الدعاوى التي بثها والدي فيها وجعلها تؤمن بهذا كأمر

حتمي وقاطع، وكان غريباً أن يروج الرجل لاشتراكية الإسلام في أوج علاقته بالشيوعية في عقر دارها وهل هذا يعني أن بذرة ما كانت تسكنه؟ أم أنه كان يلاعب اليساريين مثلاً في حين أن حقيقته هي الانتماء لليمين الذي جاءه في آخر العمر؟ تلك الطريقة التي مورست في السياسة كثيراً.

كانت أيام مخيفة شعرتُ كأني غريب عن العالم، لم أعد احتمل النظر إلى مارينا وهي الأخرى باتت متوجسة مني، كأننا ارتكبنا خيانة عظمى بحق الإنسانية، وكان بإمكاننا أن نتصالح وننسى أن ذلك حدث أو أننا سمعنا أي شيء، وكان بإمكاننا قبلها ألا نغامر بأن نجري الفحوصات لكننا فعلنا ذلك وليتنا ما فعلناه. هذه الشياطين التي وسوست لنا.

عندما اتصلت بأبي لألومه أو أفرغ غضبي، وذلك في هاتف مكتبه الثابت بالجامعة، في البداية أنكر، ثم بعد صمت لم يستمر طويلاً، أخبرني أن هذه الحقيقة وعلي أن أفعل ما شئته فأنا في الأساس لا أهمه كثيراً.

قالها هكذا بوضوح ودون أدنى تقدير لي، حتى أن شككت:

«أنت أساساً لا تهمني.. هل تفهمني؟»

وأغلق الهاتف.. لم يسمع لي بعدها ولم أسمعه. كان ذلك القول صادماً بالنسبة لي وفتح لي كوة لرؤية أشياء كثيرة في الماضي ومنذ طفولتي لم أكن قد فكرت فيها من قبل، كان الدكتور عبد الكريم قد ظهر في صورته المتخفية بعد أن نزع عنه قناع الأبوة وعاطفة كاذبة كان يدعي أنه يغمرني بها في الماضي.

وظللت أسأل نفسي، لماذا سكت عندما أخبرته بحبي من مارينا؟ ومن ثم نيتي بالزواج منها؟
وقتها لم يعلق سلباً ولا إيجاباً، بل على العكس كان قراره الواضح لي:
«هذا مستقبلك فلا تجعلني أفكر بدلا عنك!»
كان رداً غامضاً رغم وضوحه، ولم أره وقتذاك بسوى بوصلة واحدة تشير لاتجاه الحرية، أنني يجب أن أفعل ما أراه مناسباً لمصلحتي الشخصية.
صحيح أنه لم يبارك لي بالصورة الواضحة، لكن مجرد أن ترك الخيار أمامي مفتوحاً، فقد كان هذا يعني بالنسبة لي المباركة، أما أمي فقد كان همها، كعادة أغلب الأمهات، أن ترى زوجتي قريباً، لتحكم إن كانت جميلة أم لا، ولم يحدث ذلك.
مرّ الزمن ليكون ما كان ولم يكن يدور بذهني أن ثمة مصيبة قادمة، يصعب عليّ أن أبرر السبب الذي جعله يحجب عني الحقيقة، وكنت قد بدأت أتساءل، وهل يا ترى ناقشته السيدة فيرا في هذا الموضوع أم لا، وهي التي تعلم تمام العلم أنني ابنه، وهي التي شجعت زواجنا وبقوة، لتصبح هي الأخرى محل سؤال لا أعرف له إجابة، فقد مضت قبل أن يكون كشف المحجوب.
تقطع عليّ إميلدا ارتيابي بشأن الماضي وسردياته المؤلمة، وعجزي عن تفسير كل شيء. تلك المتاهة المهلكة للذات.
كانت قد وضعت بعض الأغراض في درج الدولاب الصغير الخاص بي ومن ثم زرعت ابتسامة في عينيّ قبل أن تدخل

الحمام وتخرج من جديد، وتقوم بإخراج الأغراض التي اتضح أنها أغطية رأس وفانيلة لرضيع، وبادلتها ابتسامة لا أعرف مدى صدقها، قلت لها:

«جميلة جدا..»

شعرت بفرح غامر يعبيء خلايا وجهها الطفولي، وارتمت نحوي وهي تمسك برقبتني تقبلني.

بث سادس
لسنا شياطين !

١

من المفترض أن تصل عائلتي الجديدة، خلال أيام.. فقط أيام وليست أسابيع، تسمح لي بترتيب أوضاعي وتجهيز البيت، الذي سيكون عبارة عن شقة صغيرة تكفي لأب وأم وطفل، فليس لي سوى زوجتي حسناء وابنتي سميرة.

وضعت سماعة الهاتف، بعد أن كلمت حسناء في البلد، على بعد آلاف الكيلومترات، عبر البحار، كان آخر ما سمعته منها:

«تعني أنك لن تتأخر في ترتيب أمورنا؟»

«نعم ستأتون خلال هذا الأسبوع للاستقرار نهائيا معي»

وبين انهماكي في تجهيز المتطلبات وأثاث الشقة وأغراض المطبخ وغيرها من الاحتياجات في المدينة الساحلية، كنت استرجع نفسي ورحلتي في الحياة، كيف مضت أكثر من أربعة عقود من عمري بهذه العجلة؟ كيف كان العام الماضي جارفاً وقوياً واقتربت فيه من الموت بدرجة ملموسة قبل أن اكتشف

أن حياتي يجب أن تتغير لأكون كائن آخر، وهذا ما حدث معي أن حياتي شهدت هذه التقلبات المتسارعة لأكون ابن اللحظة التي شدتني لها بعد أن كان ما كان، لاكتشف أن السيل لن يتركه مجراه مهما تأخر، فهل هذه هي حقيقة نفسي؟

أحياناً وربما في أغلب الأوقات لابد للإنسان من تجربة قاسية ليفهم الحياة، حتى يكون قادرا على اتخاذ القرار والمضي نحو ذاته المفقودة. فقد مضى فعلياً أغلب سنوات عمري، هباء قبل أن أجد أو أحدد من أكون أنا، على الأقل إن لم أكن أدركت المعنى أو الفلسفة وراء مغزى وجودي، استطيع أن أقول إنني أصبحت متصالحاً مع نفسي وروحي، مع تفاصيل معاشي اليومي وحريتي وشؤون ذاتي.

مررت بظروف ووقائع صعبة وتفاصيل ووجود تشبه الكوابيس لأجد أنني والحمد لله، تعافيت بمعجزة الرب من هذا الداء العضال، فقد صدق ذلك الطبيب الهندوسي وقدم معجزته التي كنت أنا صانعها، لأنني قررت أن أشفى فكان. سأعتذر له في الغيب أنني شككت فيه ذات يوم، وأنه يخدعني، فهل كنت عجولاً في قراري، أم أنه ضيق المرض وحصاره القاسي هو الذي جعلني أفكر كذلك. وكان بودي أن أذهب له لكي أشكره، تأخر ذلك الذهاب، ولما ذهبت نقلوا لي خبر عودته إلى الهند نهائياً وليس من سبيل للوصول إليه مرة أخرى، فهم لا يعلمون عنه أي شيء لكي يدلوني عليه، وهكذا مضى كتفاصيل أخرى في الحياة ينبغي لها أن تمضي شاء الإنسان أم أبى، ما أكثر الأشياء التي نعيشها أو نقابلها أو نشعر بها على الأقل ثم تغادرنا

وليس من سبيل للقاء من جديد، رغم أننا في كوكب واحد.
كان لي أن أشفى كذلك من عذابات أخرى، صورة الماضي القبيح الذي يسكنني.. وعلى العموم كما يقال فالتفاصيل كثيرة.. الآن لي أن أخبركم بأن ابنتي عمرها ثلاثة أشهر فقط، ولدت في مسقط رأسي ولم أحضر المناسبة السعيدة، فسميرة كانت بجوارها أمها طبعا وجدتها التي قالت لي هاتفياً:
«صلي على النبي.. تشبهك كثيراً جداً»
ثم واصلت تمازحني:
«وسامتك وأخلاقك وروحك الصافية يا ولدي»
وسامة ممكن، قلت لنفسي. لكن لا أحد يتأكد من أخلاق رضيعة. على الأقل هي تقصد الآن، ولكن الله أعلم كيف يكون حالها عندما تكبر، ومن جانب آخر فيبدو أي توصيف بشأني مزعجاً فأنا إنسان مزيف، وإذا جاز لي أن لا أجحف بحق نفسي فربما بدأت هذه الروح الصافية تظهر قبل أقل من عام تقريباً. ليس أكثر.
كانت مجموعة من الأحداث المتلاحقة ظاهرها العذاب، هي السبب في إحساسي بالاستقرار الآن، شعوري بأنني سعيد ومتوازن. ابتداءً من رحلتي لثلاثة أسابيع إلى بلدي بعد غياب عشرين سنة، ثم عودتي ومواجهتي لخطر ذلك المرض الغامض إلى طردي عن العمل وعلاقتي الغريبة مع التايلاندية إميلدا ثم محاولتها الانتحار فهروبها مني؛ تلك العشيقة الآسيوية، دون مقدمات ثم العثور على جثتها بجوار البحر، دون أن أعلم هل كانت قد كانت قد حاولت الانتحار مرة أخرى فماتت، أم

ماتت غرقاً رغم أن البحر في تلك الأماكن ضحل لا يقتل.
ماتت إمليدا إذن ومضت لتترك فيّ جرح سرعان ما شفي رغم صدمي الأولى. معها ذهب ابني المنتظر، وذهبت هي دون أن تقول لي هل ترغب في الزواج مني أم لا.. حزنت على مصعب كثيراً، وأنا أبكي متخيلاً شكله كأنه يشبه مصعب الأول الذي تركته مع أمه، أختي.. كانت الحياة بالنسبة لي فراغ هائل، أجراماً متباعدة ليس لها من هدف سوى أنها تشغل مساحات فارغة في سديم الكون، الغيب المثير. لا غرابة فهذا أنا كما كنت، لن أتغير، كنت أتخيل ذلك، ولم أكن أظن أن كل هذا الألم سوف ينتهي، في ظل إحساسي بالنهاية والاقتراب من الأجل المحتوم، وإذا كان ثمة فضل علي فإنه يعود للمحترم باريك، رغم أنني تعاملت معه في البداية باستهتار ولم أهتم بجدوى المتابعة معه، ثم عدت إليه بفعل صدمة إميلدا، الشرخ الذي رأيت فيه نفسي وأن حبي ربما كان مزيفاً، أم حبها، يصعب التكهن.
تعلمت خلال زمن وجيز وببساطة دروساً من الحياة والقدر، ومن شيء غامض علينا أن نحترمه فينا هو الإيمان، فقد نرغب في أحيان كثيرة أن نكون شياطين في حين أن طبيعتنا الإلهية غير ذلك، هي مزيج بين الشر والخير، ينتصر أي منهما ساعة نرغب فيه، لكن الصفاء النفسي العميق والرائع يكسب الإنسان القدرة الهائلة ليكون هو، بغير زيف ولا كبرياء فارغة، حيث يقترب من معناه السامي والإنساني ويختصر كثيراً من الأوقات والظنون الكاسدة. وإذا كنت لا أدعي أنني حكيم أو

أتعالى على تجارب الآخرين، فقط بإمكاني أن أقرر أمراً واحداً أن أي تجربة بشرية صادقة تقود إلى الخلاص والتحرر من الضيق والعذابات وتجعل الإنسان يعيش بأفضل مما يتوقع.
كانت دورة جديدة من حياتي قد بدأت فعلياً، فارقت فيها خصالي القديمة، السهر الطويل، وملاحقة النساء ومعاقرة الخمور والمقاهي الليلية، وغيرها من الآفات التي كانت تحاصرني، وأكثر من ذلك الشك بخصوص تاريخ عائلتي وشكي في والدّي، أبي وأمي، وعلاقتي المريبة معهما. كان كل شيء قد ترمم ولكن بعد أن كان لي إرادة باتجاه أن أفعل ذلك مهما كان الثمن، كذلك كان من ضمن قراراتي أن أودع مهنتي القديمة التي عملت بها طوال السنين منذ تخرجي..
هكذا أغلقت ملف العمل المنهك والمرعب، البحث عن أخبار الناس والمجتمعات والحكومات.. نبش القضايا والأسرار، التفكير بجدية ساذجة في أن يتم تحويل كل شيء لقصة مسلية ينتظرها الملايين أمام الشاشة، ما كانت إميلدا تصفه بقولها إنني أتسلى بالألم وجراحات الآخرين، في حين كنت أحاول أن أدافع عن موقفي بأن هذا أكل عيشي، وقبل ذلك حرفتي ومهنتي. وكانت ترد عليّ ببساطة:
«كان بإمكانك أن تختار طريقا آخر وتكون أفضل مما أنت عليه.. فحياة الإنسان هي خياراته.. أنت تقرر ما تكون..»
مثلها مثل باريك الهندوسي كانت تهبني النصائح في أيامي العجفاء ولكنها وبكل حكمتها مضت لتترك فيّ جرحاً لن أكذب وأقول أنه إندمل، فقط سأقول بصدق لنفسي إنني

سـأتذكرها كطيـف مـن عالمـي القديـم، شـيء يشـبه الأضغـاث اللذيـذة والذكريات التـي يجـب علينـا أن نراجعهـا بعـض الأحيـان دون أن نتمسـك بهـا كثيـراً أو نبحـث عـن تأكيـد لوجودهـا فعليـا فـي الماضـي.

٢

في الوقت الذي كنا فيه، أنا وإميلدا نعيش الانتظار للمجهول، وربما الوهم حيث لا نعلم الغيب. كانت قد أكدت لي أن الحمل الذي في رحمها طفلي المقبل،إذ ليس ثمة من أب آخر له سواي، وأن الماضي بالنسبة لها سوف يكون كتاباً تم تمزيقه أمامي عملياً، وأنها تذهب لتعمل في أثناء غيابها من البيت الآن خلال النهار، مندوبة مبيعات تروج مواد التجميل والماكياج لإحدى الشركات الكبيرة، تقوم بتوزيعها لشركات أصغر في حواري المدينة، لم تشرح لي بالتفصيل كيف حصلت على العمل وكم تكسب، ولم أسألها، مرات لا تحب الأسئلة الكثيرة تكتفي بأن تعطيك العنوان وأنت تقرأ الكتاب وحدك في خيالك.

ما يهمني أنني كنت سعيداً بذلك أشد ما يكون، إذ سأرى طفلي قبل موتي، وسأستعيد صورة مصعب الذي تركته يحبو في سنته الأولى، أي منذ أن فررت ذات فجر من الريف الأوكراني إلى كييف العاصمة ومنها إلى الخليج العربي، ومن ذلك اليوم لم أر أسرتي الأولى، مارينا ومصعب ذلك، الفصل من حياتي

الذي سيكون كخيال يصعب تصديقه، رغم أن ألمه لم يندمل إلى اليوم يلوح في شكل قرصات موجعة في القلب من فينة لأخرى، حتى مع يقظة ضميري الأخيرة.
زرعت إميلدا فيّ أمل أن أكون أباً قبل موتي المقبل كما كنت أتصور، فمرضي المخيف لم أكن أظنه سيترك لي العيش لأكثر من شهور معدودات، ولهذا لم أكن في معظم خلوتي أفكر بسوى أمور صغيرة أكلم ذاتي بأنها ستحقق لي متعتي في هذا العالم العجيب قبل أن أمضي إلى السماء لألقى ربي، طالما بدأت أقترب من كوني مؤمناً بدلاً من مساحات المراوحة بين الشك واليقين التي كانت تدخل قلبي أحياناً كثيرة. وكان من هذه الأمور الصغيرة بل أولها طفلي المرتقب، ذكراً كان أم أنثى، كذلك إحساسي الذاتي باتجاه إميلدا وكونها المرأة الوحيدة التي ظهرت في نهاية حياتي لترسم لي بهجة أيامي كما تصورت، بل كانت تصرف علي بعد أن أغلق حسابي في المصرف، بعد أن أصبح صفراً وهجرني الكل بلا استثناء.
ورغم أنني كنت أتمسك بالآمال الصغيرة، إلا أنني أبداً لم يكن لي من أمل كبير يتعلق بمجمل حياتي أنني سوف استمر في العيش معافى كما كنت سابقاً. على العكس كانت إميلدا تعتقد في ذلك، وتتصرف معي أنني سوف أنهض وسأكون ما أرغب فيه، وكنت أقول سراً، إنها تحاول أن تسليني لتخفف عني الانتظار القاسي، لم أفكر في جديتها أبداً، حتى عندما جاءت ذات نهار لتخبرني:
«أعلم أنه ليس لديك فكرة محددة عن مستقبلنا معا..»

كانت تتكلم بضمير الجمع.. فمصيرنا بات واحدا بتفكيرها.
ومضت تكلمني:
«سأقول لك.. لدي بعض من المال المدخر سوف يكفينا إلى أن نرتب أمورنا ونسافر معا..»
«نسافر.. أين نسافر؟»
روت لي كل شيء، أنها أرسلت أوراقي لمحطة تلفزيونية جديدة في واشنطن، وتم قبولي مبدئياً، على أن تجرى معي معاينة عبر الإسكايب للقرار النهائي، وتمّ تحديد الموعد فعلا في رسالة استلمتها (هي) عبر البريد الإلكتروني. لو كانت راجعتني في الأمر لما وافقتها، فقد بلغ مني اليأس شدته، كانت تعلم بذلك، لهذا كانت تتصرف دون الرجوع لي، فهي كانت تدرك ردود أفعالي سلفاً.
أقرر وأعلق وأكفر مع نفسي كثيراً بشأن إميلدا رغم أنها ظلت عصية الفهم عليّ فيما بعد عندما رحلت بغموض عن عالمي، بعد أن أكسبتني الثقة في ذاتي وأوقفت عنادي ضد القدر الذي علمتني أن بإمكاني أن أشكّلهُ كيفما شئت، ففي ظرف أيام ورغم كل الألم والضيق النفسي والمرض كنا قد ذهبنا إلى السفارة الأمريكية واستلمنا تأشيرتي الدخول للولايات المتحدة وظللنا في انتظار تذكرتي سفرنا فقد اشترطت على الفضائية الأمريكية أن اصطحب عشيقتي معي، ولم يكن لي أن اسميها بسوى ذلك فنحن لم نتزوج بعد.
الفضائية التي اختارتها لي إميلدا بحكم معرفتها بي على حد ما تزعم متخصصة في مجال آخر تماما غير الأخبار التي

شوشت ذهني لسنوات، قالت لي:
«ليس فيها هذا الجنون اليومي الذي يميت القلب.. ويخيف الأرواح»
«إذن... ماذا؟»
«فكر قليلاً.. تريد الإجابات السهلة.. لن يكون ذلك..»
تصمت قليلا.. تخبرني:
«قناة للموضة والأثاث والديكور والموضة»
«.. آه..»
تقول بثقة:
«ستكون ناجحاً في هذا المجال، أعرف موهبتك.. وهنا سوف يقدرونك جداً.. خالي كان يحكي لي عن نجاحاته في أمريكا» لم تخبرني عن خالها كأناس آخرين من عائلتها التي أخذها الطوفان، ولم أسألها كعادتي.
وأنا أفكر في عملي المرتقب بالولايات المتحدة، في عوالم الموضة والأزياء وجنون النساء والنحافة، فأنا أحب النساء النحيفات كمارينا وإمليدا وميرامار، ولاحقاً حسناء، كنت أقول لنفسي، رغم كل شيء، شكراً على أي حال لوالدي، فقد بذل كثيراً معي في طفولتي وصباي، فهو الذي علمني اللغة الإنجليزية لكي أجيدها، كذا أمي اللغة الفرنسية، بفضل ذلك، كان لي اقترب من عمل جديد في عالم جديد لم أذهب إليه من قبل.
أشغل نفسي في غياب إميلدا عن الشقة، مع هذه الأحلام النهارية، ممارساً قليل من لعبة الشفاء للطبيب باريك، حتى

لو أن لم أصل وقتها للقناعة الكافية بعلاجه، ما زلت أتردد بين كوني سوف أعود طبيعياً لحياتي أم لا. ولم يكن لي على أي حال أن أقاوم هذه الصور المتداخلة لي أنا وإميلدا ومصعب في شوارع نيويورك وتارة واشنطن وجلوسي في إحدى قاعات عرض الأزياء بفندق في مدينة ما لا أعلم عنها شيئاً، صنعها خيالي، أسجل انطباعاتي عن الحفل وأجري حواراً مع إحداهن لكي أعد تقريري للفضائية.

تتداخل خيالات المدن الأمريكية الموعودة مع صورة أبي وطفولتي.. لا أعرف السبب الذي يجعله يحاصرني طيلة هذا النهار، وهل مجرد شكر له في الغيب، حتى لو لم يكن ليرمم الهوة الفاصلة بيننا، يترك له الفرصة لكي يقف أمامي هكذا في ذهني لا يغادره؟ أراه في تشققات حائط السيراميك بالحمام، يبدو لي ذلك كصور متداخلة يظهر فيها أبي، وفي رغوة الصابون وأنا أغسل صحناً بالمطبخ، وفي ظلال الإضاءة الطفيفة لضوء النهار المتسرب من وراء الستارة إلى حائط الغرفة وأنا أتكوم على الأرض متقرفصاً لا أتحكم في أفكاري.

أرى ذلك الأب الذي بحكم علاقته بتدريس العلوم السياسية وتعايشه المتماهي مع هذا العالم وأنا أصغير، كان لي أن اقتربت من عشق السياسة والتلهي بالأحداث اليومية ووقائع الناس والشعوب.. الحروب والاغتيالات والصراعات التي تدور في الخفاء والعلن.. الموت المجاني والضحك أحياناً في الجنازات.

قادني قدري أن سافرت مبكراً إلى الخارج، حيث درست

تخصص الإعلام في شرق أوروبا قبل أن يتمزق تماماً، كانت وجهتي إلى كييف، وكان أبي هو الذي حدد الخيار ورتبه كما ينبغي لوالد يبحث عن صورة محددة لابنه، كما يتصور أغلب الآباء.

قضيت سنواتي الأولى في الجامعة الحمراء، أتلقى علومي وخبراتي في الإعلام بمزيج من الحرص على أن يكون مشبعاً بنكهة السياسة وأجواء اللحظات الأخيرة من انهيار منظومة الشرق والغرب.. تداعيات ما حدث في ألمانيا من انهيار الجدار العازل بين البلدين، وتفكك الدولة السوفيتية وغيرها من تحولات سريعة كانت تجري في العالم وقتذاك، والأهم ما كان يجري في أوكرانيا نفسها من شدّ وجذب ثم استفتاء الأول من ديسمبر ١٩٩١ ذلك اليوم الذي أيد فيه أكثر من ٩٠ بالمائة من الشعب الأوكراني قانون الاستقلال عن الاتحاد الكبير، كان الجميع شغوف باختراع الديمقراطية ثم حصل كساد اقتصادي وظروف سيئة، وكان ما يهمني أن أكمل دراستي بمعهد الصحافة والتلفزيون والعودة سريعا إلى بلدي.

ليس لي الآن من تلك الأيام سوى ذاكرة مشوشة كأنني لم أعشها حقا، ما تبقى هي الخبرات والمهارات التي تراكمت مع السنوات، لأنه أمام تضاريس الحياة اليومية وقصص وخواطر الأمس السحيق؛ غابت عني معظم الأشياء وكأنها لم تحصل.

٣

كنت أسأل نفسي كثيراً في الماضي، هل أعاني من مشكلة ما في دماغي الذي أحياناً ينسى أمور معينة ويبقي أشياء أخرى قد لا تكون مهمة؟ أم أنها طريقة حياتي التي تنشغل بالوقت والآني؟!، فالذي يعمل في الأخبار لا يهتم بسوى أن يسكن في ما يحدث لا ما حدث، يعيش لحظة الحدث فحسب وينسى ما سواها، حتى لو أنه يحاول أن يكون مرات موضوعياً بأن يلصق ويحذف ويضيف خلفيات من الأمس القريب ربما البعيد أيضا، تظهر في معظم الأحيان باهتة لمن يكون حصيفاً في التأمل، وتبقى في النهاية هي الأخبار والتقارير التلفزيونية، عوالم لا تخضع للتدقيق ولا التمحيص، تحتمل التصديق والتكذيب، وتظل لعبة هدفها الإلهاء الوقتي لكائن يجلس على أريكة أو في مكتبه أو في مقهى وهو يحرك «الريموت كنترول» سريعاً لينتقل من قناة لأخرى، في عالم سريع التغير لا يتوقف عند لحظة ليقدسها.

أفكر في ذلك أكون قد اخترت زاوية في مقهى قريباً من طريق

إلى السينما التي دخلتها مرتين خلال شهرين منذ وصولي المدينة الساحلية، مرة لحضور فيلم كان مثار جدل لطبقتنا، أي أبناء مهنتي، يصوّر كيف للعاملين في الإعلام أن يخوضوا مهام صعبة ويعيشون في ظروف سيئة جداً ويكسبون مالاً قليلاً، بل تافهاً، في حين أن المستفيد الحقيقي هو رجل ضخم يحمل سيجارة كوبية ببدلة ضخمة وبطن متكرش.. تلك الصورة النمطية التي يرسمها فنانو الكاريكاتير السذج.. مؤلف الفيلم أو مخرجه ليس لديهما أي إبداع.

شعرت بالملل.. وسألت نفسي، لما هذا الضجيج ولما يقولون إنه فيلم «خرافي»؟!!.. تحديداً مايا، تدخل صالة التحرير وهي واقفة في المنتصف، تدخن لا تعبأ بأحد ولا تهتم بلافتة كبيرة بالأحمر.. (ممنوع التدخين في صالة الأخبار).. لكنها بجسدها الفارع وعينيها ذات العدستين الزرقاوين تطغى على كل ما حولها، فينسى الجميع رائحة الدخان ولافتات الممنوع، تنشغل الأعين بامراة في بداية الثلاثينات بأنوثة طاغية وجسد عجيب التضاريس، تحس معها ببهجة في الروح.. أعني أنا أشعر بذلك، لكنني رغم كل ذلك لم أكن أحبها، أعترف بذلك، بل أنني كنت أمقتها لأنها بنظري كانت مكابرة، لا تعترف بأي خطأ.. لا تشير إلا إلى أخطاء الآخرين.. ما ينفع منها والمجدي بشأنها، فقط هو تأملها فحسب، وعليك أن تسكت وتبعد عن دخان سجائرها الذي يتصاعد في القاعة الضيقة. لم أكن أحب النساء المكابرات.. فيما بعد سوف أعيد التفكير فيها كإنسانة محترمة، وسأظل أطاردها فقط في خيالي، بعض الناس لا

شجاعة لي أمامهن ولا أعرف السبب بالتحديد.
أصرت مايا أن الفيلم «خراااااافي».. مطت شفتاها بقوة، مصبوغتان باللون الأحمر الفاقع.. كأنهما ممصوتان جيداً هذا المساء، أفكر بذلك. كان الوقت لا يزال مبكراً على موعد نشرة العاشرة ليلاً، لهذا أمامنا وقت لكي نكون جاهزين، وبعدها سوف نتفرغ لشيء من سهرة الليل، وغالباً سنجلس هنا في هذا المقهى أو آخر ليس بعيداً.
لم أكمل الفيلم الأول ولهذا مللت فخرجت، أما الفيلم الثاني فقد كان عن مأساة دارفور في بلدي، هؤلاء الغربيون يحولون الألم والأحزان إلى نوع من التسلية والأرباح السريعة.. ظهرت لا تفة في بداية الفيلم مكتوب فيها «إن كثيرا من المشاهد واقعية، بل هي كذلك».. جورج كلوني كان داعم وممول هذا الفيلم، لم يظهر فيه كممثل أو يضع لمسة إخراجية.. لافتة صغيرة وضعت على حين حذر تفيد بذلك.
شخصيا لا أحب كلوني أراه متصنعاً ومتعجرفاً، لم يحدث لي أن التقيته، لكن لي صوري الذهنية الخاصة عن الناس خاصة المشاهير والتي كونتها من خلال عملي لعقدين في مجالي، حيث أستطيع من خلال الوجوه وخلفيات الشخص وقليل من المعلومات عنه أن أفهم ماذا يكون، هل هو سيء المزاج.. جيد أم كريه؟
كلمت نفسي بصوت مسموع لجاري في قاعة السينما:
«كلوني إنسان كريه ليس له أن يثيرني. إذن لماذا أنا هنا؟»
ثم أكملت هامساً، فقد التفت الجار نحوي غير راض، لم أكن

أظن أنه يفهم اللغة العربية حسبته آسيوياً: «لا أستطيع تحمل هذه الأباطيل»..

إذا عرف بعض زملائي موقفي هذا، فسوف يسرعون لا تهامي بأنني أحابي حكومة الخرطوم التي طاردها كلوني كما يروون باللعنات، مرة يكتشف مجزرة يقول إنه صوّرها بالأقمار الاصطناعية وصرف من حر ماله، ومرة يزور معسكراً في دارفور على الحدود مع تشاد بزعم أنه سفير للسلام، وأحيانا يظهر في جوبا ممسكاً بيد زعيم الدولة الجديدة في الجنوب السوداني، وهما يضحكان بافتعال واضح، تتداخل مشاهده المختلفة في ذاكرتي، من خلال مواقف كنت ربما اشتغلت عليها كلها إن لم يكن أكثرها في عدد من التقارير التلفزيونية التي جهزتها في أوقات متفرقة من عملي في فضائيات سابقة عملت بهن، لأنني هنا ابتعدت عن ملف الأخبار المتعلقة ببلدي وفق رغبتي.

هنا تعمل الذاكرة بشكل جيد وأنا أقطع المسافة راجلاً إلى المقهى في يوم عطلتي الأسبوعية، ربما سألتقي ولو صدفة عددا من الأصدقاء الجدد في هذه المدينة، كما أنني أرغب في بعض من الشراب، سنذهب سوياً إلى أحد الفنادق الصغيرة وراء ذلك المقهى وحتما سوف نتكلم ونثرثر بعد أن تثقل رؤوسنا، سأشتم كلوني كثيراً إنه بغيض.. وسأتذكر زميلتي المتعجرفة سأراها باهرة في هذا الليل مع ارتفاع إضاءة من البحر تأتي ملونة من سفينة ليست بعيدة وكأنها تشهد ميلاد فرحة ما، ليس لي أن أفهم سببها.

كانت ثمة سفينة تقف ليس بعيداً عن الساحل وتتحرك ببطء

باتجاهه، ومع ثقل رأسي وإحساسي بالنعاس ومصادرة خيالات مايا لبحثي المستمر عن فكرة واقعية تقنع الإنسان بمعنى أن يكون جزءاً من هذا العالم، كنت أسرح بعيداً، أنسى من أكون مستمعاً للسيمفونية التاسعة لبيتهوفن، تنبعث من مكان ما، دون أن أركز في ما وراء ما تتضمنه الموسيقى من معانٍ خالدة. كعادتي، يحدث كثيراً أنني خارج سياق الزمان والمكان وداخلهما في اللحظة نفسها. شيطان متمرد على ذاته بلا هوى، لا يدرك مصيره في الخطوة المقبلة حتى لو كان واثقاً من نفسه.

٤

اتلفت وراءي ليس في المقهى من أحد سواي. يتداخل عندي ما حدث في ليلة ذاك الفيلم.. ليلة كلوني البغيض وهذه الليلة.. هذا المساء الذي لن يأتي فيه أحدهم أو أحداهن إلى هنا ليجلس معي، وربما لو رآني أي من الزملاء الأماجد فسوف يهرب سريعاً لا مجال للتردد في قرار كهذا، فأنا أصبحت شبهة وقنبلة موقوتة أو لغم حربي، وأي اقتراب مني يعني تهديداً للقمة العيش، إنها فنتازيا عجيبة أن تصبح بين يوم وآخر نذير غضب إلهي ولعنة، فمن الملعون يا ترى؟! أنا أم هذا المدير المتعجرف، الذي جعلني أشعر بأنني سوف أعيش في هذا الموقع أجمل أيام حياتي وأقضي باقي عمري إلى المعاش الإجباري.

كنت اعتقد أن ما تبقى من عمري وأنا حساس في مسألة السنوات، أي حوالي نيف وعشرين سنة، على الأكثر لو عمرت كثيراً مع حياتي المشبعة بالعبث والإهمال الصحي؛ سوف يسمح لي هذا الزمن، إلى الستين، سن التقاعد المعتاد، بأن أقضي حياتي كما يحلو لي، ومن ثم سوف أبحث عن مكان

أتفرغ فيه للقراءة والتأمل.. نعم فقد كانت بداخلي دائماً نزعة صوفية تسكنني، تطلُّ أحيانا ثم تختفي، وكنت أفكر أنها سوف تظهر باهرة في مقتبل سنواتي، تحديداً ما بعد تقاعدي، إن لم أمت طبعا قبلها.

اعتمدت خطتي لما بعد الستين، على أن أصلي كثيراً لله وأقضي جزءاً كبيراً من الليل في الدعاء بطريقتي الخاصة، ودائما كنت اعتقد أن هذا البعد الباطني فيّ مؤجل لساعته التي لم تحن بعد، في اليوم الذي سوف يقيمون لي حفل الوداع على أنني بلغت سن الفراق، وأن هذا المكان لم يعد فيه رزقي.. غير أن كل شيء تقريباً تم بأسرع من توقعاتي، وودعت الفضائية (اوول آرب All Arab) مبكراً جداً، في حين أن الخطة نفسها تغيرت كثيراً، وربما اقتربت من تنفيذها دون أن أعلم بذلك.

الآن أتأملهم وأنا أجالس في المقهى لأجد أنهم هربوا مع غمضة جفن، لم تبق إلا خيالات شريدة لصور ممزقة في الرأس مع الإحساس بدوار لطيف لما يشبه الشبح الذي يتمشى في الظلام، إنه مدير القناة، ذلك الرجل الغامض.. المحترم والمبجل في البداية والذي تحول إلى بغيض وتافه.. لكنني لن أتركه أبداً، سوف أمزقه إرباً في خيالي، وألقى به للكلاب التي سوف أكوّنها كيفما شئت، ضخمة لها قدرة على التهامه بسهولة، هذا اللحم النيء والنجس. لا أحد مثله بتقديري يمكن أن يكون نظيف الجسد فالذي تفوح قذارته النفسية لا يمكن أن يكون طاهر البدن كذلك.

لعفونة فمه كنت لا أتحمل الوقوف بجواره، ولو لدقيقة.. وهو يشرح المطلوب.. يلقي بالتوجيهات.. كان في الواقع يهرطق عندما تكون الهرطقة بلا معنى، مع أنها في أصلها اللاتيني تشير إلى العكس، تقارب البحث عن مناظيم جديدة.. لم تكن عنده فكرة عن عمله وهو في غرارة نفسه يعلم ذلك، يعلم أنه يصدر الأوامر فحسب، حتى لو أنها جوفاء وفارغة، وغالباً ما يسمع لها الموظفون ويهرعون لعمل ما شاؤوا بالأحرى المفترض والمهني كما يقولون..

هو يدرك تماما إنه وصل هنا بمحض الصدفة التي أوجدت كوناً ذات يوم بحسب نظريات الفيزياء التي لا أفهم فيها كثيراً. جاء لينفذ برنامجاً معيناً لأسياده الذين صنعوه من العدم، هم ومن على شاكلتي ممن يكون عليهم إكمال المهمة في تزييف الواقع وصناعة الأباطيل.. وفي هذا المكان بالذات فهمت أن العالم ليس كما نراه ولا ما نتخيله كما رددت كثيرا لزملائي؛ إنه ما علينا أن نتعايش معه رغم الكراهية والبغضاء الكبيرة، كانت سنوات قاسية على أية حال.

السيمفونية نفسها، التاسعة تنبعث وقتذاك من وراء الجدران في المكتب الفاره. موكيت تكاد الأحذية تختفي فيه.. سجاد فارسي محاك بدقة تامة وبألوان تمتص الغبار إن وجد هنا. لا أثر لخدوش في الجدران، إلا في وجه الرجل الذي يبدو أنه أدمن عمليات تجميل الوجه في السنوات الأخيرة، بعد أن وصل لهذا الموقع.

يشير لي بأن أجلس على الكرسي البلاستيكي الطويل بخلفية

مائلة للوراء قليلا ليست مريحة للجلوس. أحب أن يكون الكرسي معتدلاً ورأسياً، لكن لا بأس، فهذه المرة الأولى سوف أتحمل، وبعدها سوف أعبر عن رغباتي وسأقوم بتعديل الأشياء وسحب الدواسة من أسفل، الآن لا يليق بي أن أفعل ذلك وفي أول لقاء مع مديري.

يكمل مكالمة على هاتفه ماركة «آي فون».. يحرك يده اليسرى باتجاه «الريموت كنترول» يشغل التلفزيون أمامه، يتنقل سريعاً بالقنوات وهو يتكلم بهمس أحياناً ومرات يرتفع صوته مع ضحكات متناثرة في الغرفة، كأنه لا أحد هنا.

أخيراً يقف من جديد يمد يده مرحباً بي مرة أخرى، بعد أن يوقف الشاشة سوداء بظهور علامة «إشارة ضعيفة». لا ينطق بكلمة مفهومة كأنه يهمهم.

اسمعه يقول لي:

«هذه الحرب المجنونة لن تتوقف.. إنهم يدفعونها لمزيد من الاشتعال»

لا أعرف عن أي طرف يتكلم وعن أي حرب، هناك حروب كثيرة في العالم، في الشرق الأوكراني الذي كان جزءاً من ذكراتي ذات يوم، وأنا أتجول مع تلك الفتاة التي أحبتني لعامين ومن ثم تزوجنا.. أعني مارينا التي تركت جرحاً في قلبي إلى اليوم ساعة أخذتني إلى عائلتها في منطقة ريفية غاية الجمال، طبيعية آخاذة وصفاء نفسي، لا أظن أنني نمت بسعادة وخلدت لروحي جيداً كما حدث في تلك الليلة، وأنا أتأمل النجوم تتناثر في أفق مفتوح أسود تماما وهي تصب لي كأساً من الويسكي

ارتشفه ليقلل من أوجاع البرد في مفاصل جسدي الهش، فأنا سريع العطب أمام الطقس البارد، ليس لكائن مثلي جاء من بلاد حارة أن يتحمل هذا الجو، لكن سأكون شجاعاً أمامها.
تتلاشى صورتها والرجل لم يوضح بعد ما هي الحرب التي يعنيها!
كلامه يظل عمومياً وغير واضح.. وقد يكون لا يعني ما يقول بدقة، أفهم هذه النوعية تتدرب على الكلام أمام الناس بهدف أن تثبت أنها موجودة وقيادية، وهي تعلم أن الطاعة العمياء من قبل الآخرين ليست إلا مصلحة ومرتب يدفع في آخر الشهر.
أرد عليه بشيء من الحرج في أنني لم أفهم مقصده تماما، لم أقدر على دسّ مشاعري:
«اعتقد أنك تعني الحرب الأوكرانية؟»
«نعم كيف عرفت ذلك.. أنا لم...»
يقطع كلامه من جديد.. كعادته يقفز من فكرة لأخرى، يبدو بلا بوصلة لخياله، أحاول أن أتذكر ماذا قال بعدها، لا تسعفني الذاكرة الآن، وأنا أجلس هنا في المقهى وحدي.
يرد على مكالمة هاتفية هذه المرة هي أنثى لا شك في ذلك، كان يغازلها بصوت مسموع غير مهتم بالحجر الذي يجلس أمامه، لا حياء ولا ذوق، وهو كذلك يواعدها منتصف الليلة:
«(فندق كورونا).. اللوبي الثاني على اليمين من المدخل، هناك وراء طاولة الطعام المستطيلة.. تذكري أن هناك طاولة أخرى دائرية كالتي جلسنا عندها تلك المرة»
يغلق الهاتف يضعه يمينه.. يحرك الماوس هذه المرة على

شاشة الكمبيوتر.. يتذمر من أن الموظفين هنا لا يفهمون عمق الرسالة الإعلامية.. لا يعرفون كيف يتفاعلون مع الخبر بشكل صحيح.. التفاعل الذي يجب أن يكون إيجابياً، بحيث ينعكس في تعميق دور القناة في جذب المزيد من المشاهدين، يلف كرسيه الدوار للوراء يشير إلى خارطة على الحائط لم انتبه لها سابقاً، فأنا قد التزمت الجلوس لاتجاه واحد والنظر أمامي مثل تلميذ في فصل مدرسي.

يأتي بعصا حديدية رقيقة جداً، من أين لم أتبين، كأنه ساحر، يقوم بحركات بهلوانية غير مفهومة إلا أن ترى الأشياء تحدث أمامك فجأة، يشير بالعصا إلى موقع محدد على الخارطة الكبيرة التي تشبه الأرض التي نعيش فيها، لكنها مقطوعة الأطراف.

قال لي:

«هذه المكان حيث نحن.. أظن أنك تفهم الجغرافية جيداً»

أومأت له برأسي وكأنني غبي فعلاً، واصل الكلام:

«حدود طاقتنا القصوى من هنا إلى هنا.. الأماكن التي تم بترها ليس لدينا فيها أي وجود تقريباً.. لكنها غير مهمة.. لا أحد يشاهدنا في المنطقة القطبية ولا في كوبا.. نحن ممنوعون هناك..»

يسحب العصا للوراء ثم يعيدها ليقف أعلى اللوحة، عند رقم مكتوب ضخماً.. سبعة ملايين وستمائة وسبعون ألف وثمانين.. ٧٦٧٠٠٨٠، يخبرني:

«إنهم عدد مشاهدينا في العالم.. الأرقام دقيقة وتتجدد بشكل

يومي.. لو مات أحدهم الآن في واحد من هذه الحروب الجهنمية سوف يتم حذفه.. ولو ولد طفل له عينين صغيرتين وشاهد الشاشة الآن سوف يضاف لنا غدا»

كان يهرطق أيضا.. ولكن عليّ الصبر.. أن أحتمل الدرس حتى النهاية.. يوضح أكثر:

«لعلك تعرف شركة أنتوني بروجرامين الاستشارية.. لا إعلامي يجهلها.. إنهم شريكنا في التدقيق والإحصاء.. العام الماضي استلمنا شهادة الأول على مستوى الشرق الأوسط.. طموحنا يتضاعف كل عام.. سافرت إلى واشنطن واستلمت الجائزة هناك بنفسي.. ليتك كنت معي.. في الرحلات القادمة سوف نسافر معاً. فالمزيد من الجوائز قادمة للقناة بفضلكم»

الآن بدأت أشعر بالفرح.. فالرجل بدأ في الاطراء عليّ.. بدأ في الحديث عن قدراتي وشهرتي في مجال عملي وتمكني، قال لي:

« لم أتردد في الراتب الذي طلبته.. لأنني أعرف قدراتك جيداً.. أعرف من تكون.. التزكية التي قدمها لي السيد مروان السبكي لم تكن ذات أهمية بالنسبة لي.. بالمناسبة هو سيأتي غداً هنا للقاء مجموعة من المتدربين بالقناة.. لدينا برنامج مكثف لتخريج جيل جديد من الإعلاميين الصغار.. نحن نرعى برنامج (الإعلامي الموهوب) من سنوات.. لا اعتقد أن قناة تقوم بهذه الرسالة التي ننشدها»

هذا هو عملي المتعلق بالإعلام، المهنة التي ودعتها بشجاعة.. وهذا يعني أنه وعلى مدى سنوات طويلة؛ كان يجب عليّ

أن أداهـن، أتملـق وأكـذب لكـي أعيـش. يجـب أن أنفـق سـاعات طويلـة مـن اليـوم فـي تدليـس الأخبـار وحبكـة الصيغـة المناسـبة للتقاريـر لكـي أرضـي مسـؤولي فـي المقـام الأول، ومـن ثـم الشـركة أو المؤسسـة التـي أعمـل لحسـابها، فليـس فـي الإعـلام مـن حيـاد؛ مـن يكلمـك عـن الحيـاد مجـرد مداهـن هـو الآخـر. لقـد اختـرع الإعـلام وتعـددت وسـائله فـي عالمنـا اليـوم لكـي تنتشـر الأكاذيـب التـي يقتـات عليهـا أنـاس بعينهـم، هـم أولئـك الذيـن لا يمكـن أن يعيشـوا إلا وسـط هـذه البحيـرة مـن التشـويش علـى الحقائـق.

وراء هـؤلاء الذيـن هـم فـي الواجهـة، طبعـا، يقـف جيـش مـن الذيـن يسـاعدون علـى نشـر الحقائـق الملفقـة.. أنـاس بارعـون جـداً فـي تغليـف منتجاتهـم يتعاملـون معهـا كالسـلع اليوميـة التـي نشـتريها مـن البقـالات ومـن المتاجـر ومحـلات الخـردوات، فالخبـر الـذي تسـمعه فـي القنـاة الإخباريـة المفضلـة لـك فـي الصبـاح أو الظهيـرة، أي كان موعـدك المحبـب لسـماع الأخبـار، هـو منتـج فـي نهايـة الأمـر يتـم تصفيتـه ببراعـة وتقديمـه لـك علـى طبـق أو لنقـل زجاجـة كالتـي يعبأ فيهـا الحليـب الصافـي وقـد حـدد تاريـخ الإنتـاج والصلاحيـة، وكلاهمـا فـي الغالـب الأعـم مزيفيـن؛ ففـي أكثـر مـن مـرة يقبـض علـى منتجـات وصلـت السـوق وعبـرت حـدود دولـة لأخـرى، وقـد كتـب تاريـخ الإنتـاج الـذي لـم يحـن بعـد.

بث سابع
الشريط العجيب

١

يقول الضابط الواقف على مرمى حجر من الدولة الثانية لسائق الشاحنة:

«عفوا لن نسمح بتمرير هذه السلعة.. هذا تزييف!»

يضغط الشاب الذي يجلس بجوار سائق الشاحنة على دواسات هاتفه ماركة نوكيا، ثم يدوس على سماعة مكبر الصوت، ويقول للضابط:

«خذ تحدث مع العقيد..»

الضابط حديث التخرج لم يتفنن بعد في فنون التمويه والخداع ولم يدخل لعبة السمسرة وجني المال بالطرق السريعة، يسمع العقيد يكمله:

«أنت رجل أمن وليس من واجبك أن تطارد صلاحية السلع.. هذا عمل لجهة أخرى لا تكن حُشرِيا»

يتمتم الضابط برتبة ملازم قائلاً:

«نعم سيدي.. سمعا وطاعة.. معلوم سيدي»
يسلم الهاتف للشاب، يدوس الباكستاني الذي يقود الشاحنة بقوة على ضاغط البنزين وينطلق من حدود دولة لأخرى في حين تلقي الشمس بأشعتها القوية في الصحراء على رأس الخيمة المكيفة التي يجلس الضابط أمامها، ليس في رأسه سوى شيء واحد هل يا ترى سوف يتعرض لأي مضايقات أو ضرر جراء ما حدث.
يقرر بسهولة دون تفكير عميق، أنه «بعد اليوم لا يتطلب الأمر مغامرات ولا قفز على الواقع»، يكون قد تذكر نصيحة الضابط الكبير مدير الكلية العسكرية التي تخرج منها نهاية العام الماضي، كان قد أوصاه:
«يا ابني أنت أول دفعتك.. لكن الحياة خارج الكلية أمر مختلف تماما.. ضع هذا في بالك.. لا تتردد في أن تكون شجاعاً فهذا واجبك ولكن لا تكون متهوراً أبداً»
الآن هو يفكر أين هي حدود الواجب، أين تنتهي وأين يبدأ التهور يا ترى؟
عليه أن يكون عمليا باتجاه التزامات الحياة التي لا تنتهي أبداً.
عليه أن يفكر في بناء عائلته وفي الحبيبة التي تنتظره في الشارع المقابل لبيتهم، كما يحدث في الأفلام الهندية التي أدمن مشاهدتها هو وزملائه من العساكر وهم يسرقون ساعة من الليل ليهربوا من المعسكر المحاط بالسياج المكهرب ليصلوا إلى داخل المدينة ويشاهدون فيلماً في السينما ثم يتسكعون في الشوارع قبل أن يعودوا في آخر الليل.

يتم إيقافهم في طوابير ليلية مؤقتة لأن الجنود المكلفين بمهمة الحراسة سرعان ما سيتنازلون بعد أن يعلموا أن هناك هدية في انتظار كل منهم.. باكيتات السجائر الأمريكية المهربة وعلب الشوكولاتة الرائعة وماكينات الحلاقة الكهربائية وأغراض أخرى، لا يتذكرها الآن بدقة تامة.

يسرد الباكستاني ذو اللحية الطويلة التي عمّ البياض نصفها الأيمن، في حين بقي النصف الأيسر أسود كأنه مصبوغ للتو، قصته على الشاب، يخبره عن رحلاته في بلدان كثيرة حتى وصل للعمل هنا على الحدود.

يستمع الشاب بدقة لكل كلمة ويفكر في حياته التي ينتظرها الكثير كمهاجر ومتغرب عن وطنه الأم دون أن يصل إلى أي نتيجة إيجابية واضحة لجدوى أن يكون جزءاً من هذا العالم الغريب، فهو إلى الآن لا يفهم كيف تصوغ الحياة قوانينها في خدمة بعض الناس ورفعتهم إلى السماء في حين تحبط بالبعض الآخر إلى الحضيض.

يسمع الرجل يكلمه:

«كنت مجاهداً عظيماً.. لقد حاربنا بقوة ضد الروس»

يخبرُ الباكستاني الشابَ، ثم يغمض عينيه لترتاحان بعض من الوقت في الطريق الصحراوي الطويل والمعبد في بعض أجزائه، في حين كانت السلطات قد أغلقت أجزاء أخرى لأسباب غير معلومة، مما يضطر السائقون للنزول عن الشارع الرئيسي والالتزام بطريق ترابي مستعصٍ، قبل العودة مجدداً للأسفلت، ما يؤخر الرحلة وينهك السيارات التي تبطيء سرعتها وهي

تعاني كثيراً، ما يرفع ضغط الدم لدى السائقين لاسيما كبار السن الذين يقل احتمالهم ليس لأي سبب واضح، فلا واحد منهم تقريباً عنده أمر مهم يرغب في اللحاق به، لكن أغلبهم يتذمرون ويرغبون في إتمام الأمور بسرعة، ربما ليتفرغوا لشيء واحد في الليل أن يخلدوا للنوم وهم يزيحون أضغاث النهار الطويل لأجل ليل أقصر وكل منهم يعالج لواعج السنوات القديمة والمتهالكة من حياته في الماضي، ليست هي رائعة بأي حال، لكنه حنين الإنسان الدائم للأشياء التي تباعدت بحيث يراها أكثر بهاء وجمالاً وهي قد لا تكون كذلك أبداً.

يغفو الباكستاني العجوز، على الأرض فوق لحاف طالما كان رفيقه منذ سنوات، يتباخت به، سرعان ما يستسلم لآلهة النوم ويبدأ في مراجعة تفاصيل حياته ما بين جبال تورا بورا التي تعني الغبار الأسود، وحدود بلاده مع بلدة بيشاور الحدودية، وحلمه بأن يسافر للعمل بالخليج العربي، وكيف أنه تم القبض عليه مرة بزعم أنه من جماعة طالبان وداعمي المتشددين، لكن ذلك يحدث في الأحلام والحمد لله، فما أن ينتفض الرجل صارخاً يكتشف أنه وسط مجموعة من أصدقائه الذين يقيمون في بيت قديم يشبه حظائر البهائم، يكون أحد رفاقهم قد أخذ خبز التنور الحار ليقدمه لهم مع العسل في الفجر الباكر، قبل أن يصلوا الصبح جماعة في المسجد القريب من البيت، وفي أعينهم بقايا نعاس يطاردونه بأن يعودوا للنوم مجدداً، إلى أن تشرق شمس أخرى.

٢

في الإعلام يجب أن تخضع كل قصة للتحليل والنزاهة بمنطق السلطة، النظام والحكومة. بمعنى أكثر شفافية الجهة الداعمة التي تقدم المال وتدفع رواتب الموظفين، فالفضائيات الإخبارية بشكل محدد لا تربح أبداً، لولا المال الذي يضخ لحسابها من الداعمين أو الممولين لن تتقدم أبداً أو تستمر ولو ليوم واحد.

قد يكون ثمة إعلانات في الفضائيات الإخبارية لكنها من النوع الممول لأغراض مشبوهة، مثلا إعلان للخطوط الجوية صاحبة البلد المستضيف للقناة أو إعلان سياحي سمج لبلد بعيد لم يعرف أنه مصدر للسياحة أو أنه يجذب السياح، يتم بث الإعلان عدة مرات في اليوم وفي النهاية تكتشف أن القيمة التي دفعت له أساساً هزيلة وأن الفكرة وراءها أحد أعضاء مجلس الإدارة، الذي يريد أن يرضي رئيس المجلس في رحلته إلى هناك بعد عدة أيام لأجل صفقة مشبوهة. يتم التعتيم على هذا البلد وتقديمه كبلد سياحي وهو معقل لتجارة غير شرعية نوع من الاسترقاق الجديد للجنس الأبيض، حيث يؤتي

بفتيات ويزج بهن في فنادق ليلية لتقديم المتع الرخيصة، يأخذ التاجر الكبير ما يعادل خمسين بالمائة من كل مبلغ يدفعه كائن ذكوري متهور، يأخذ متعته في الليل ويهرب قبل مجيء اليوم الجديد.

خلال سنوات خبرتي وفي عقدين كاملين عرفت كل شيء تقريباً.. الوضاعة والحبكات السرية.. المؤمرات.. قذارة الإعلام الذي يتحدث باسم الشعوب والثورات وتغيير الأنظمة.. لكنني لم أكن أهتم بكل ذلك، فقط كنت أبحث عن متعي الخاص ففقد كنت إنساناً سعيداً جداً في حدود علاقتي مع ذاتي بأن أعيش لحظاتي الهنيّة سواء رضي عني الآخرون أم لا، ما دمت سعيداً مع نفسي فهذا يكفي جداً، حتى لو أن أيامي الأخيرة شهدت تحولي مجهول الهوية، أن اتجه نحو أكون الإنسان الذي أرغب فيه، دون قدرة على تأكيد ذلك بشكل جازم، بعد أن عملت على تصفية حساباتي الخاسرة مع الماضي وتلك الجراح الغريبة.

أتذكره المدير الغبي.. يقوم باستعراض الشريط التوثيقي.. يضعه جانباً ليكرر لي ما قاله مرات كثيرة من قبل:

«الحكاية جميلة لكنها تفتقد للموضوعية»

لا استغرب فأنا أفهم كيف يحيكون المبررات، الواحد فيهم يفكر وفي باله المدير الكبير.. وذاك يفكر في الأكبر وهكذا إلى أن يصل الأمر إلى رئيس الدولة.. دائرة لابد منها لأجل أن يكون للإعلام رسالة كما يوهمون الناس.. يفهمون جيداً أن الإعلام بشكله التقليدي سقط منذ اختراع هذه الآلة العجيبة

التـي اسـمها الانترنـت ومـا تبعهـا مـن وسـائط ووسـائل، لكنهـم يستمرون فـي غيهـم، ليسـوا أغبيـاء لكنـه عمـاء السـلطة والتسـلط الغربـة فـي إرضـاء الكبيـر، الفوقـي والعظيـم.

لـم تكـن سـوى شـهور وجيـزة قـد مضـت علـى اللقـاء الأول بمكتـب المديـر وحديثنـا سـويا عـن ذكريـات أوكرانيـا، حتـى فهـم الرجـل تمامـا أننـي لسـت بسـيطاً وأننـي أفهـم أصـول اللعبـة، بـل بـات يعلـم أكثـر أننـي مـن النـوع الـذي ينجـر لأهوائـه الخاصـة وملذاتـه، ولـولا ذلـك ولـو أنـي تفرغـت للعمـل كمـا ينبغـي ولعبـة المداهنـات والتملـق لكنـت قـد جلسـت مكانـه.

بـات يعـرف أننـي لا أحبـه ولا أكرهـه وليـس لـدي توهمـات بهـذا الخصـوص فـي مـكان يتصـارع فيـه الزمـلاء مـن كافـة الجنسـيات، كل لـه أحـلام وطموحـات، مـن ينتصـر مـن يعـرف كيـف يكـون إعلاميـا بحـق!! أي مـن يزيـف ويكـذب ويتمـادى فـي الكـذب حتـى يكتـب عنـد الكبـار خادمـاً للمصالـح العليـا للوطـن وللأمـة.

ينظر مديري نحوي، كأنه يقرأ سري، يقول لي:

«يمكـن بـث التسـجيل ولكـن بإجـراء بعـض التعديـلات.. أريـده يكـون جاهـزاً خـلال يوميـن..»

ويكرر كلمة «يومين»..

لـم يوضـح لـي مـا الـذي ينبغـي حذفـه، وقـال لـي وأنـا أغـادر مكتبـه إلـى صالـة التحريـر، وقـد سـمعته بوضـوح:

«في حدود اثنتي عشرة دقيقة لا غير.. هذا يكفي»

لـم يوضـح لـي.. مـا سـيحذف. لكنـي فهمـت.. ذلـك الـذي كان ينبغـي أن أحذفـه مـن البدايـة دون أن أغامـر بـه أساسـاً، غيـر أنـي وفـي

بعض الأحيان أكون مناكفاً لنفسي لا أعرف لماذا أفعل ذلك؟! ربما لحقيقة أو سر واحد يجب قوله، إنه لو لم تعرض الأشياء المفترض أن تحذف عليهم وأتيت بكل شيء جاهزاً من البداية فسيظنون أنك حمار لا تفهم في المهنة.. فالتكنيك السليم داخل وسائل الإعلام أن تقدم النص أو التسجيل أو التقرير كاملاً للمسؤول ثم تقول له سنشطب هذا وهذا.. وذاك.. هذا سيثبت أنك بارع في عملك، أنك تعرف المحظور وغير المرغوب فيه، وكلما كنت مميزاً في القص ومعرفة الممنوعات فأنت إعلامي شاطر وموهوب.

بعد يومين كان الشريط جاهزاً بعد التعديل المفترض.

كان الضابط الكبير يقدم روايته على أن العمل في الحدود مضنٍ لكنه ممتع، ذلك الرجل الذي لم يظهر ذات يوم قريب في المناطق الحدودية، ربما إلا عندما يحمل أسرته في رحلة برية للصيد بالصقور.. ما جرى ببساطة أنه لكي كون الضابط في المكان المناسب، فقد تم تصوير مشاهد الحدود البرية ومن ثم مشهد الضابط العقيد وجرت الدبلجة بشكل رائع، ومن ثم اختفى الباكستاني تماما من الشريط، فالحديث عن المتشددين ممنوع خاصة بعد أن ثبت أن الرجل متورط فعلاً مع طالبان وقبلها في السودان مع أسامة بن لادن، كان أحد المقاولين الكبار المساهمين في بناء جسور تحمي الطرق من مياه الخريف في شمال البلاد، ولكن دون جدوى.

كنت أعرف تماما ما سيقوله مديري:» لا نحب أن نتكلم عنهم في هذه الأيام فالمصالح تتبدل»، ما سيقوله طبعا بالنيابة

عمـن يقدمـون لـه المشـورة..
علقت له:
«حذفناه.. لكنه رجل بسيط على أية حال..»
أقول ذلك بتردد.. يرد المدير:
«هؤلاء الذين تخرج من تحتهم الأفاعي.. لا تستهن بالبشر»
استلم المديـر الشـريط، وأرسـله للجهـة العليـا التـي سـوف تقـرر نشره أم لا. وثمـة جهات ربمـا هـو نفسـه لا يعـرف مـن تكـون، هـل هـي داخـل البـلاد أم خارجهـا، تلـك الجهـات التـي تقـرر النشـر والبـث مـن عدمـه، لهـذا مـرات عندمـا نقـرأ تقاريـر فـي صحـف غربيـة عـن الفضائيـة نقـول ربمـا كانـوا محقيـن.. ربمـا كان دعمنـا يأتـي مـن المتطرفيـن الذيـن نقـول إننـا نحاربهـم، أو مـن أمريـكا التـي تقـول إنهـا تحـارب المتشـددين، أو مـن كوكـب غامـض.. فـي الإعـلام كل شـيء جائـز ولا توجـد حقائـق نهائيـة وواضحـة حتـى لمـن يظـن أنـه يمسـك بالمفصـل النهائـي.
تأخـر البـث كثيـراً ولـم أعـرف السـبب الرئيسـي، هـل هـو بسـبب الانشـغال بسلسـلة مـن حـروب المنطقـة والصفقـات التـي يعمـل مجلـس الإدارة عليهـا بشـكل مسـتمر؟!! مصالحهـم الخاصـة داخـل المصالـح العليـا.. تلـك التـي تخلـق النعـرات بيـن الـدول وتقطـع العلاقـات الدبلوماسـية وتهـزم الجيـوش، أم أنـه هنـاك أمـر آخـر غيـر مفهـوم؟!
فـي الإعـلام مهمـا قلـت أنـك تـدرك أصـول اللعبـة ومهمـا راكمـت مـن الخبـرات فإنـك ذات لحظـة سـوف تكتشـف كـم أنـت جاهـل تمامـا، مـا كان يثيـر اسـتغرابي أن الشـريط عـادي جـداً فـي تقديـري

- طبعـا - خاصـة بعـد إجـراء الحـذف، ولهـذا كنـت مسـتغرباً مـا الداعـي لأن يتـم تعطيلـه كل هـذا الوقـت؟.. لكـن يمكـن أن نفهـم الأشـياء مـرات وبعـد مـرور زمـن طويـل جـداً. وقـد لا نفهـم أساسـاً، ونغـادر هـذا العالـم بجهلنـا.

٣

أتناسي مع الوقت قصة هذا الشريط.. كأنني لم أقم به أصلاً.. لأجد نفسي أقف ذات يوم أمام البوابة الرئيسية الزجاجية التي تفتح بنفسها وتغلق بغباء لأنني أتقدم نحوها ثم أتراجع، وأنا أتنفس بقوة محاولاً أن أراجع من أكون بالضبط، أي موقع لي في العالم، ولماذا حياتي سلسلة من الإكراهات؟!، حدث ذلك لأن الخطر بدأ يقترب.

كانت ثمة هواجس تسيطر عليّ، لست متأكداً من صحتها وكنت أشعر بأنني لست ذلك الكائن الذي جيء به في البداية مبجلاً وفرشت له المطارف والحشايا، مرات يكون لك أن تتخيل الخطر القادم أو تستشعره، وقد كان ذلك الشريط هو البداية التي عجلت بنهايتي.. صحيح أنني لست متأكداً إلى اليوم، غير أن قلبي يقول ذلك، وما أسرع القلب في التقاط المستعصيات من الأمور.

كنت دائماً أظن أنني إنسان حر، له خياراته في الحياة.. اليوم وبعد مرور السنوات اكتشف وبدقة أنه مهما بلغت حريتي وأنا أعمل في هذا المجال المبهم، فثمة ما هو مخيف أمامي..

وحش كاسر ومرعب لا يمكن التخلص منه. نعم قد أكون حراً في باقي تفاصيل يومي، لكن الجزء العملي منه أو المهني هو الشر الذي أقيم داخله دون أن أمتلك القدرة أو الشجاعة على مغادرته أو مواجهته، وهو حتماً ذلك الذي يؤثر على باقي تفاصيل يومي ويقلقها، وقد خاب ظني ان هذا وذاك هما منفصلان، كما كنت اعتقد في الماضي.

كان الخوف يسيطر عليّ وتمكن مني بالفعل، لم أخف مثلما خفت في ذلك اليوم وتوجست، وإذا كانت القصة ستطول فالمختصر المفيد أن المدير أشار لي بكلمات مقتضية.

قال وهو يمر من عندي أمام مكتبي، ووراء الزجاج في الصالة الكبيرة للتحرير:

«الطيور تسافر بعيداً ولكن عليها أن تغادر لأوكارها ذات يوم»

ابتسم ابتسامة خبيثة، كنت أعرفها جيداً ولم ينظر بعدها نحوي، وعلمت مع نفسي أن الحرب قد بدأت تشتعل بحق وأنا الخاسر، حرب قد لا تفهم طبيعتها بالضبط ومن يديرها، ويتحكم في أصولها، هل هم من يجلسون بجوارك هنا أم أناس آخرون مهملون خارج الميدان؟ كان كل شيء يبدو مشوشاً في ذلك المساء؟!

بدأت الهواجس تحرقني والافتراضات تحاصرني، ماذا لو أن ذلك حدث فماذا سأعمل فهذه هي المهنة التي أفهم فيها وتدربت عليها؟ وهل ستكون سمعتي كسابق عهدها خاصة إذا تسرب خبر يقول بأنه لم يعرف كيف يؤكد معلوماته أو يعرف كيف يفرز الممنوع من المرغوب في شريط تافه لا يتعدى

اثنتي عشرة دقيقة؟
رغم ذلك فأنا لست متأكداً وإلى اليوم أن هذا الضابط العقيد والباكستاني هما السبب، أعني الشريط!! ربما سيقولون أو قالوا فعلاً إنها نزاهتي التي أبعدتني، يعلمون إنني نزيه حتى لو كنت فاسقاً بنظرهم، لكن لن يصدقوني، فالناس لا تصدق الحقائق بل الأوهام.. وهكذا بقيت في الانتظار..
الغريب أن الأمور مضت بعدها هادئة.. لا أعرف كيف حدث ذلك، إلى أن جاءت رحلتي إلى السودان لتغطية الانتخابات هناك خلال تلك الأسابيع الثلاثة التي كانت عاصفة جداً، وبمجرد عودتي إلى هنا كانت الأوضاع تتعقد مرة أخرى فقد بدأت قصة الشريط القديم تطل من جديد لتبدو أشبه بمرض لا يمكن نسيانه، مهما تجاهلته يطل عليه بالأوجاع التي لا تهدأ.. ولصدف القدر السيئة، فقد تصادف الداء العضال الذي ظهر فجأة في جسدي مع عودة جهة مجهولة لنبش موضوع الشريط، ليكون استفهامي المعلق بذهني، ما هذا الشريط العجيب؟!
فكرت أن أسأل مديري الكريّه، لكنه لن يجيبني فقد عاد دون سابق إنذار لمقاطعتي وتجنب الحديث معي تماما، إلى أن قرروا فصلي عن العمل بظن أنهم يتحكمون في رزقي نهائيا، أنهم قادرون على نفيي من العالم وتمزيق إرباً. لكن إميلدا كانت قادرة على صنع المعجزات في هذا العالم، هذه المرأة التي سوف خلقت لي الأمل وذهبت دون أن تترك لي ولو دليل واضح على أنها كانت مستاءة من وجودها في الدنيا.

بث ثامن
حياة محتملة!

١

نسيبتي.. أم زوجتي، جدة سميرة.. امرأة بارعة في اختراع القصص والأكاذيب اللذيذة، لو قدر لها أن تدرس في زمانها وهي في حدود الثمانين الآن، لكانت بمثابة الروائي الكولومبي الشهير غابرييل غارسيا ماركيز في قدرتها على اختراع الحكايات واستباق العدم في ابتكار ما لم يحدث بعد، أظنها تستند على ذاكرة محتالة تمسك بتفاصيل قديمة وتعيد تشكيلها، كذلك قدرتها على التخييل العجيب والمزج بين الواقع والمفترض، كما أنها ولو كنت دقيقاً ليس عندها بقرة مقدسة.

قالت لي ذات مساء وأنا أتكلم مع حسناء حول تفاصيل تتعلق بترتيبات السفر، أن ابنتي الرضيعة وبمجرد أن تراني أطل على الشاشة في تلفزيون البيت، تسرع إلى تقبيل صورتي، ومرات ينقطع الإرسال، فالطبق في السطح يهتز كثيراً في ليلة عاصفة

مـن عواصـف الشـمال فـي بلدنـا فـي هـذا الموسـم مـن السـنة، إنـه فصـل الخريـف، الغبـار والأتربـة والريـح البـاردة آخـر الليـل وأشـياء أخـرى تشـبه ذكريـات لـم تسـتقر كثيـراً فـي الأذهـان لرجـل كان عليـه أن يرتحـل منـذ سـن مبكـرة فـي حياتـه مـن بلـد لآخـر، ومـن هـمٍّ لغيـره دون أشـرعة.

كنـت أعلـم أنهـا تمـارس لعبـة الخيـال، وتعتمـد علـى معلومـات قديمـة عنـي أننـي أعمـل فـي التلفزيـون، رغـم أننـي لـم أعمـل مذيعـاً لنشـرة الأخبـار ذات يـوم فالسـودانيين بالـذات غيـر مرغـوب بظهورهـم فـي الشاشـات العربيـة، يفضلـون عليهـم ذوي البشـرة البيضـاء الناصعـة، أو يجعلونهـم يظهـرون فـي نشـرات آخـر الليـل بعـد أن ينـام النـاس حتـى لا يخيفـون بهـم الأطفـال، قالتهـا لـي مايـا مـرة وهـي تضحـك.

كنـت قـد اسـتلمت عملـي الجديـد كمحاسـب لشـركة اسـتهلاكية،أؤدي أعمـالاً روتينيـة، وأجيدهـا وكان العمـل فـي البدايـة تحديـاً لـي لكـن الأمـور صـارت علـى مـا يـرام، حاولـت أن أجعـل رأسـي فارغـاً مـن أي مـا يـدور فـي العالـم خـارج همومـي الأساسـية، أحـاول أن أنسـى الأخبـار وفوضـى مـا يحـدث فـي العالـم وأن أتقاضـى الـرد علـى أحدهـم مـن زبائننـا، يكلمنـي أن القـوات المعينـة دخلـت البـلاد الفلانـي، بـأن أجيبـه.. نعـم.. نعـم.. لا أزيدهـا، وأن أقلـل الجلـوس أمـام التلفزيـون، لكنـي تلـك الجرثومـة كانـت تأكلنـي ترفـض مغادرتـي، إذ أهـرع فـي أول المسـاء لسـماع نشـرات الأخبـار.

فـي حقيقـة الأمـر كان راتبـي متواضعـاً لا يقـدر بمـا كنـت أتقاضـي

فـي صناعـة الزيـف والأوهـام، قـد يصـل لربعـه، لكننـي كنـت أحـاول بـروح الإنسـان المؤمـن، بصوفيتـي الجديـدة أن أعيـش الحيـاة سـعيداً مـع حسـناء وسـميرة، وأحـاول أن أنسـى الماضـي الـذي يقفـز مـن مـرة لأخـرى فـي رأسـي فيسـبب لـي الصـداع.

سـكنا ولتوفيـر المـال فـي شـقة صغيـرة، بالأحـرى هـي جـزء مـن شـقة كبيـرة تـم تقسيمها إلـى جزئيـن، لتوفيـر المـال، أنـا فـي الجزء الشـمالي وجـاري فـي النصـف الجنوبـي، حيـث يصعـب أن أحـدد الاتجاهـات بالضبـط، فخـارج بلـدي ورغـم مـرور السـنين الطويلـة، ليـس عنـدي مـن بوصلـة واضحـة للشـمال، ولا الجنـوب، وحيـث تتداخـل النواحـي أحـاول دائمـا أن أفهمهـا بـأن أعيـد فـي ذاكرتـي صـورة الأمكنـة التـي عشـت فيهـا سـنوات الأولـى.

جـاري يعمـل فـي مصنـع للحديـد والصلـب، ينتمـي سـراً لجماعـة الأخـوان المسـلمين المصريـة، ينـزل إلـى بلـده فـي الصيـف بعـد أن يكـون قـد حلـق ذقنـه وبـدأ بهـي الطلـة مثـل نجـم سـينمائي، مرتدياً بدلـة سـوداء وكارفتـه فـي جسـم ضخـم لرجـل طويـل القامـة، يفتقـد للوسـامة لـولا هـذه الملابـس زهيـدة الثمـن، فهـو بخيـل كمـا زوجتـه التـي توفـر المـال وهـي تأتـي مـن المـول التجـاري الـذي يبعـد ثلاثـة أو أربعـة كيلومتـرات مشـياً علـى الأقـدام حتـى توفـر أجـرة التاكسـي وهـي تمشـي مثقلـة بالأغـراض.

فـي تلـك الفتـرة مـن أيـام حكـم مبـارك، يخـاف الكثيـرون أن يظهـروا هويتهـم الدينيـة، اللحيـة تبـدو سـبة وعليـك أن تتخلـص منهـا قبـل أن تنـزل مـن علـى الطائـرة، هـو يحـرص علـى ذلـك حتـى لا يقـع فـي مشـاكل هـو فـي غنـى عنهـا كمـا يشـرح لـي دائمـاً، يحـاول أن يفسـر

لـي أشـياء قـد لا تهمنـي كثيـراً منطلقـاً مـن خلفيـة أننـي إعلامـي، ينسـى وقـد لا يعـرف أننـي أحـاول أن أتخلـص مـن ذكريـات سـيئة فـي الماضـي.

يتخلـص هـو مـن لحيتـه، يجرجـر أولاده الذكـور الثلاثـة وزوجتـه ذات النقـاب، ممتلئـة البـدن بـأرداف كبيـرة يمكـن تحسسـهما مـن علـى البعـد بالعينيـن تحـت العبـاءة السـوداء الشـفافة التـي تظهـر لباسـها، إذ يمكننـي أن أتخيـل شـكلها، هـذه التخيـلات التـي تطاردنـي مـن بقايـا العالـم القديـم الـذي يسـكنني.. الانشـغال بالأجسـاد النسـوية، الأحجـام والمسـاحات والـدلال.. أتبسـمل وأحـاول أيضـا أن أتخلـص مـن ذلـك.

لكنـي لا أسـتطيع مباشـرة، وأنـا أجلـس وراء كاونتـر المحاسـبة فـي الشـركة، تطاردنـي صورتهـا ورغبتـي فـي أن أعـرف هـل هـي جميلة أم لا، وراء نقابهـا.. هـي عمومـاً قصيـرة، ليسـت كل النسـاء القصيـرات غيـر جميـلات، لكـن حسـناء أكـدت لـي أن هـذه السـيدة طيبـة جـداً.. نقطـة ضعفهـا الوحيـدة هـي البخـل.. وأخبرتنـي أنهـا تفتقـر لأي مسـحة جمـال إلا إذا ابتسـمت بأسـنان صفـراء.

«أظنها نادر ما تستاك لتوفر ثمن المعجون!»

تضحـك حسـناء بطريقـة مختصـرة، تبـدو مغلفـة بالحيـاء كأنهـا آتيـة مـن زمـان آخـر. أعاينهـا أمامـي وأسـرح بعيـداً فـي أيامـي التـي مضـت، مفكـراً ببـطء فـي الغـد المجهـول.. مـا هـي حقيقـة هـذه المـرأة التـي تجلـس أمامـي؟ هـل أنـا انتمـى لها؟ هـل تحبنـي بحق؟ أم أننـا مجـرد خيـالات فـي عالـم لا معنـى لـه. وأخـاف أن أعـود مـن جديـد لأوجاعـي وظنونـي، أهـرع للنـوم كـي أنسـى.

في ذلك العام، في منتصف ديسمبر، قرر جاري العودة نهائياً إلى مصر، أخبرني أن الحال لم يعد مجدياً:
«الوضع مزر جداً والراتب لا يكفي»
وقال لي فيما قال إن استمراره في المصنع سوف يقرب نهايته.. فالحرارة العالية للفولاذ الساخن مضجرة وتسبب الأمراض. ولأنه ربما لن يعد يراني إن غادر بلده، كعادة المغتربين الذين يتقابلون كجيران أو أصدقاء أو زملاء، ثم يمضي كل لسبيله إلى الأبد، فقد أسر لي بأمر.
«اللعنة إنه هذا المرض الخبيث.. أولادي لا يعرفون ذلك»
وأشار بأصبعه يحذرني.. وكأنني سوف أنشر الخبر على الملأ.
لا يدري الرجل أساساً إنني لن اهتم به ولن أفكر فيه، سوف أسرع لنسيانه بعد أيام قليلة وربما ساعة من خروجه إلى المطار وتركه المفتاح للجزء الثاني من الشقة مع زوجتي، دون أن يكون قد سدد إيجار الشهر.
لم يعتذر بل كان غير مؤدب في لحظاته الأخيرة، وهو يخبرني:
«إنه نصف شهر.. وقد تركت لك بتوجاز وسرير ولحاف»
باقي الأشياء القيمة كان قد باعها، وترك لنا الزبالة كما وصفتها حسناء وهي تضحك بإقتضاب كالعادة.
في الظهيرة، استيقظت من النوم، كنت قد سهرت كثيراً كعادتي في نهاية الأسبوع وصباح الجمعة، أدخن بشراهة منذ أيام بعد أن هجرت التدخين منذ فترة طويلة، لا أعرف السبب الذي أعادني، ما هو هذا القلق الذي بدأ يحدق بي من فينة لأخرى مع إحساسي بأنني لست أنا، وربما أحتاج لأعود ذلك الكائن

الـذي كان يسـكنني رغـم قبحـه.
أعايـن طلـوع الفجـر مـن النافـذة المطلـة علـى البلكونـة الطويلـة الوحيـدة للشـقة، بعـد أن أيقظتنـي زوجتـي لكـي نذهـب إلـى الجـزء الثانـي مـن البيـت لنـرى المزبلـة، فقـد ذهـب الجيـران وتركـوا لنـا كميـة مـن الأوسـاخ المتراكمـة:
«لم يبق لهم إلا أن يتركوا لنا فضلاتهم»
قالت حسناء بخجل مكتوم دون أن تضحك هذه المرة..
رأينـا البوتجـاز الـذي يتحـدث عنـه الرجـل، قديـم لا يصلـح لتحضيـر أي شـيء. رميت بـه أولاً فـي الكيـس الأسـود المخصـص للقمامـة، أمـا اللحـاف فأرجـأت التخلـص منـه إلـى آخـر الليـل حتـى لا أنـزل بـه فـي مثـل هـذا الوقـت إلـى الشـارع، فمنظـره قمـئ جـداً.
احتملنـا أنـا وزوجتـي الروائـح المزعجـة فـي حيـن كانـت سـميرة نائمـة وحدهـا فـي الغرفـة، اشـتغلنا بجديـة لسـاعة، نظفنـا الغرفتين والحمـام والممـر الصغيـر الـذي كان مطبخهم، فالمطبخ الأساسـي للشـقة الكبيـرة يقـع فـي النصـف المخصـص لنـا، الـذي يجـاور حمامـاً طويـلا تفتـح نافذتـه فـي مقابـل نافـذة حمامهـم الأصغـر، عندمـا كان الرجـل يطـل مـن هنـا ويغمـز بعينيـه لزوجتـي، أخبرتني بمـا جـرى أكثـر مـن مـرة، ولـم أحـب أن افتعـل مشـكلة معـه.
لـم يكـن مـن شـيء لـه قيمـة فـي البيـت إذن، سـوى ورقـة صغيـرة عليهـا رسـم لرجـل غريـب كأننـي رأيتـه مـن قبـل، تأملـت فيـه مليئـاً ولكـن دون جـدوى وقـررت أن احتفـظ بالورقـة بعـد ان طبقتهـا فـي محفظتـي، حتـى أفكـر لاحقـاً مـن يكـون صاحـب هـذا الوجـه، المرسـوم بقلـم زيتـي أزرق وبملامـح واضحـة، غيـر أن ذاكرتـي

خربة.
فكرت مع نفسي هل يا ترى أن هذا الجار يمارس الرسم؟ ولم تكن عندي إجابة. فحتى لو كان يرسم، فلم يسبق لي أن عرفت ذلك أو كلمني عنه، رغم أنه كثيراً ما ثرثر معي وحكي لي عن أشياء كثيرة، عن قريته في مصر وأخيه الذي يقبع في سجون مبارك، وعمته بدوية التي سافرت إلى الدنمارك وأصبحت راهبة هناك والكل في البلد يلعنها وكثير جدا من الحكايات التي لا تخلص، طالما كن نحن البشر مغرمون بالقصص، سواء كانت حقيقية أم من نسج خيالاتنا.
كنا نسكن في الطابق الخامس من البناية، فوقنا مباشرة السطح الذي تستوطنه مجموعة كبيرة من الأطباق اللاقطة للفضائيات، وهو مكان مناسب للقاء بيننا، دون موعد منتظم، أكون قد ذهبت لتدخين سيجارة حتى لا أضايق سميرة بالدخان، في حين يكون قد جاء لتعديل الطبق وهو يمسك بهاتفه النقال ويتكلم مع زوجته في الأسفل، ولا أدري كيف كان ينفق على هذه المكالمة وهو البخيل، لكن زوجتي حلت لي اللغز، بأن المصنع يدفع المكالمات المحلية بشرط ألا تتجاوز مبلغ محدداً.
طبعا النساء يثرثرن مع بعضهن ولهن قصص تروى، لكل منهن حكاية كما نحن الرجال، وهن أكثر حميمة في الحكي من الذكور، لهن عواطف وأشجان وحنين دفاق إلى أشياء لا نفهمها، وعوالم لم نلجها.. علاقتهن مع الحكي أكثر تشويقاً وجمالاً. ينتابني هذا الشعور وكثيراً ما أفكر فيه وأنا أدقق أعمالي ودفاتري في المكتب ليلاً قبل أن أعود للبيت، ليس

لسبب سوى أن زميلاتي بالشركة، يبدأن ما بعد السادسة مساء في الهمس واللمز والونسة المتقطعة الأنفاس، إنهن يبرعن في حكاياتهن عن أشياء لا أعرف ما هي بالضبط!

أرهق ذاكرتي في سبيل أن أتذكر لكن لا سبيل، لم نتكلم يوماً عن الرسم، وربما كان في عرفه حراماً، فهو يقول إنه لا يسمع الغناء، وعلق مرة على صوت التلفزيون في شقتنا بأنه يصدر مزامير شيطانية.. كان صوت أحد المغنيات يرتفع في الصالة، زوجتي تحب أن ترفع الصوت لأقصى ما تريد وهي تكون وحدها تقتل الوحشة بذلك الصدى الذي يتردد في الحيطان الثلاثة وحائط الخشب الرابع الذي يفصلنا عن الجيران ومن ثم يتبدد كل ذلك مع صرخات سميرة وهي تستيقظ لترضع الحليب وتنام مجدداً، ما أكثر نوم الأطفال في السنة الأولى!

أخبرني بقصته، أنه في شبابه كان راقصاً بارعاً، عمل في مرقص ليلي وكسب كثيراً لكن الله تاب عليه، فأغمض عن تلك الذكريات السيئة وأصبح ملتزماً، وكدت أضحك مع نفسي وأنا أتذكر اختلاساته من نافذة الحمام، لم أرغب في إشعاره بالحرج، إذ أعرف نفسي سواء في الأمس أم اليوم أنني لست من الناس اللؤماء الذين يحبون أن يحرجوا البشر حتى لو كانوا قليلي أدب وحياء وكريهين، غير أن صاحبي هذا رغم ما فيه من تناقضات كان مُسلٍ بعض الشيء.

أحياناً في الليل نتمشى سويا إلى الكورنيش البحري في المدينة قريبا من الميناء، نترك زوجتي وزوجته في البيت تتسليان بمتابعة فيلماً هندياً في الغالب، أو سهرة من سهرات «ستار

أكاديمي» خاصة في الحلقات الأخيرة عندما تشتعل المنافسة، أو برنامج «من يربح المليون؟» وجورجي قرادحي.
ونتمشى. هو بحجة تخفيف الوزن وأنا لا حجة لي، فجسدي هزيل، مدخن مدمن يشعل سيجارة وراء أختها، أهلك باكيت كامل في الرحلة إلى أن نعود في الساعة الواحدة ليس أقل من اليوم التالي، لنجد أن السيدتين قد نامتا متعاكستين في السرير الكبير، تستيقظ أم محمود دون أن أرى وجهها طبعاً، حيث اكتفى بالمؤخرة المثيرة للمرأة القصيرة، في حين يطيل أبو محمود تأمله في زوجتي ويظن أنني لا أراه. أنا أرى كل شيء وأتقاضى عنه.

٢

في اليوم التالي، قلت لزوجتي لابد أن أبحث عن مؤجر للشقة، أعني الجزء الذي كان يشعله أبو محمود وعائلته، لأننا لن نقدر على أن ندفع إيجار الشقة كاملة، ومن ناحية عملية لسنا في حاجة لكل هذه الغرف وحمامين، ولم تكن لي خبرة واضحة عن كيف يمكن إنجاز هذه المهمة، إلا أن أسأل زملائي في الشركة، فهم كما في الفضائية الكل يعرف أو مبنى التلفزيون الكل يفهم في كل شيء، شباب من كل البلدان العربية، هنا في الشركة، فقهاء في الدين والعلم والجنس وكتابة الروايات.

أخبروني أن مداخل المجمعات التجارية بها بوردات من الخشب يمكن لي أن أدفع مبلغاً بسيطاً وأعلق ورقة بمقاس «أي فور» A٤ أكتب فيها مواصفات ما أرغب في بيعه أو تأجيره ورقم هاتفي النقال. ونفذت ذلك حيث علقت الورقة في جمعية تعاونية ليست بعيدة عن موقع عملنا، مررت عليها في منتصف الليل، قبل أن أذهب إلى البيت، وكانت أول مرة انتبه إلى هذه اللوحات الإعلانية، وقرأت عشرات الإعلانات لعقارات وبوتجازات وثلاجات قديمة وأغراض لأناس انتهت خدماتهم

ويريدون مغادرة البلد، لا أعرف السبب الذي يجعلهم يشيرون في الإعلان لهدف البيع (معروض للبيع بسبب السفر)، وما علاقة المشتري بالهدف؟ هل هو نوع من التبرير الذاتي الذي يحاول فيه المرء أن يقنع نفسه أنه لم يبع ذلك الشيء حاجة، ليقول إنه محتاج للمال؟

مثل هذه الأسئلة كانت تقلقني لأنها كانت تعيدني لعالم الأخبار، الذي أحاول أن أتخلص منه، لكن دائماً هم البشر على هذه الشاكلة، يريدون أن يظهروا أنهم فعلوا الأمر المعين، لأن ثمة مبرر قوي لذلك الفعل. في حين أن ذلك قد لا يكون مطلوباً.

ضحكت وأنا اقرأ إعلاناً عرفته على الفور، ان أبا محمود هو صاحبه، فقد سافر الرجل وما زال الإعلان باقٍ في مكانه لأن مدة اقتلاعه لم تحن، واللياقة تتطلب أن يخبر صاحب الإعلان بحسب الشروط المحل لكي يزيح الورقة، إذا تمت أي صفقة قبل نهاية الأسبوع أو أُلغي العرض، حتى لا يقوم البعض بالاتصال دون جدوى. لكن يبدو أن أبا محمود لم يبال بالأمر فقد غادر وترك كل شيء وراءه.

أخبرت الشاب الجالس وراء الفترينة الزجاجية، الذي كان يصلح الساعات ويشرف على الإعلانات ويبدو أنه يحصل على نسبة منها.. لا أعرف السبب الذي جعلني اهتم بأن أقول له: «هذا الإعلان لجاري الذي سافر، ولا داع لبقائه وعليك ان ينزعه»

نظر نحوي باستغراب ولم يكلمني مستمراً في التدقيق مع

ساعة يصلحها، ولما كررت، قال لي:
«يا سيدي كيف أعرف أنك لا تكذب؟!»
صمت قليلاً، قلت دون تفكير:
«وما المصلحة أن أكذب؟»
رد عليّ دون أن ينظر نحوي:
«وما المصلحة أن تهتم بإزالة إعلان أنت لست صاحبه!»
كان درسا لطيفاً لي، أنا الذي بت أحياناً أتدخل في أمور لا تعنيني ولا أعرف لماذا أفعل ذلك، هل هي حالة من القلق الذي يتنابني ولا أعرف مبرره؟ ذلك التوجس الذي يحاصرني باتجاه كل ما حولي من لحظة لأخرى، حتى أنني أشك في طبيعة حياتي الآنية، هل هي خيال أم واقع؟
خرجت بعد أن تم تعليق الإعلان الذي خططته بيدي، ليس خطي جميلا لكنه مقروء. في ذلك اليوم اكتشفت أن أبا محمود، لو أنه الذي خطّ الإعلان الذي كان قد قرر فيه تأجير الشقة بشرط شراء عفش لا قيمة له؛ فهو يتمتع بموهبة رائعة في الخط العربي، غير أن زوجتي أخبرتني فيما بعد أن أم محمود هي التي من الله عليها بهذه الموهبة الفريدة، وكانت تتمنى أن توظفها دون جدوى لأن الهنود هنا يعرفون عمل كل شيء.
لم أكن لأتصور أن أم محمود لها موهبة، سوى الطاعة العمياء لهذا الفيل المخشوشن، الذي كان يحاول استجراري ونحن نتمشى ليلاً كالعادة بأن أقلع عن التدخين لأنه شيء كريه ولا يليق بي، وذات مرة نسي كل ما قال. كنا قد جلسنا عند مقهى قريباً من البحر، أرخى قدميه الضخمتين بعيداً عن الطاولة

ونظر نحو السماء يتأوه بصوت مرتفع، قبل أن يخبرني برغبة في التدخين.
قدمت له سيجارة ماركة مارلبورو الأمريكية، أشعلتها له وهو يمسك بها بشفتيه الغليظتين وصورة شيطانية تعبر بذهني، تخيلته يمتص بهما نهدي أم محمود، كان لها نهدان كبيران جداً، يتهدلان وهي تصعد السلم محملة بالأغراض التي جاءت بها من المسافة البعيدة، من ذلك المول التجاري. من جديد بدأت الصور القديمة تطاردني.
كان قد انتشى، قائلاً:
«للسيجارة نشوة كبيرة عندما تعود إليها بعد فترة طويلة»
كأنه في بالي يتذكر أيام الرقص الليلي، وتفتقت عيناه كزهرتي خشخاش وبدأ رأسه أكثر كبراً، كنت أشعر بذلك وأنا أتأمله ينفث الدخان في الهواء البارد، كان الفصل شتاء ونسائم الليل تجعل الإنسان التائه يجد في ذلك الطقس أشياء لذيذة لا يمكن تفسيرها، تعيده ربما إلى بلد بعيد جاء منه.
قال لي:
«لديك زوجة جميلة لكن.. لا أظنك من النوع الذي...»
لم أدعه يكمل.. فنظراتي المصوبة نحوه كانت كافية لتحجيمه عن المضي في التفاهات.. قلت له بغضب:
«هل سكرت بهذه السيجارة أيها ...؟»
ايضا لم يتركني أكمل.. أسرع لإغلاق فمي بصفحة يده الكبيرة، قبل أن يُقبِّل رأسي معتذراً، أنه لا يقصد شيء..
قال لي:

«كلنا في النهاية بشر نخطئ ونصيب.. أنتما زوجان طيبان.. ربنا يحفظكما لابنتكما»

رفع كفيه للسماء يدعو الله بصوت جهور، كل من كان حولنا فهم أنني متزوج ولي بنت في شهورها الأولى.. يا للفضيحة.. ما هذا الرجل الغبي!! فأنا لا أحب مثل هذه الأجواء، هذه الهرجلة العمياء. لا تستهويني على الأقل في وضعي الجديد.

نهضت من المقعد ووضعت الحساب على الطاولة، كنا قد شربنا كوبي ليمون رغم البرد، ومشينا دون أن يكلم أحدنا الثاني، كان ذلك قبل ثلاثة أيام من إعلانه العودة نهائياً إلى مصر، ذلك القرار الذي جاء مفاجئاً. صحيح لم يكن ثمة أسرار كبيرة بيننا ولا نعرف أيضا عن بعضنا الكثير، رغم ما نقضيه من وقت في الليل خاصة في الشهور الأخيرة، إلا أن قراره كان بالنسبة لي ليس مفاجئاً فحسب، بل شعرت كأن شيئاً ما سوف يشغر في حياتي، فأبو محمود لم يكن مجرد جار هذا ما اختلج بنفسي، وفي كثير من الأحيان لا نحس بقيمة الناس أو الأشياء إلا إذا فقدناها.

٣

عمل متراكم يكون عليّ إنجازه قبل نهاية هذا اليوم. ينتهي اليوم بعد أذان العشاء، بخلاف أيام الفضائية كان اليوم يبدأ في تلك الساعة أو قبلها بقليل. لا أعرف السبب الذي جعلني وأنا وسط اندماجي مع ترتيب الحسابات في الكمبيوتر على برنامج «إكسل» أتذكر أول أيام في قناة اوول آرب All Arab وأنني أعددت تقريراً حول «غزو جريدة غرينادا» في الثمانينات من القرن العشرين. واقعياً عندما طلب مني رئيس قسم الأخبار والتقارير ذلك الموضوع شعرت بالحرج فأنا لا أعلمه عن أي شيء تقريبا، ونظر الرجل نحوي شذراً كأنه اكتشف أكذوبة ذكائي أو حرفيتي، لكنني تداركت ذلك بأن شغلته بالذهاب فوراً لبدء العمل.

ما أن أبدأ حتى يتضح لي الوضع وأكون بعدها قد قدمت عملاً رائعاً حتى لو لم يكن عندي أي فكرة مسبقة، ولم أكن أحب المدراء الذين يحاولون أن يفهموا من البداية إن كنت على دارية بالقصة أم لا، أحب أن أتلقى التكاليف فحسب.

الرجل لم يطاردني وهذا جيد بالنسبة لي، وعادته هي أن يلقي الطلب فحسب كما عرفت لاحقاً.. وهذا جيد.. وذهبت من أمامه دون أن يفصل في الأمر، ما المطوب أكثر من ذلك. ولأني صادق مع نفسي إن لم أكن كاذباً، فقد اكتشفت أنني لا أعرف ما المقصود بـ «غرينادا» ومن الذي غزاها ولأي سبب؟ ولابد كذلك من مبرر يجعل الموضوع مشفوعاً بقيمة، فأن يطلب رئيسي تقريراً معيناً لابد أن ذلك مقرون بحدث ما، أو بذكرى ما على الأقل.

انتهت القصة بأنني فهمت وشكرا للانترنت.. ففي ١٥ ديسمبر ١٩٨٣ انتهت الغزوة التي بدأت في ٢٥ أكتوبر، حيث دخلت قوات أمريكية الجزيرة الواقعة في أمريكا الوسطى بزعم تطهيرها من الوجود الشيوعي، كنوع من الانتقام من الاتحاد السوفيتي، بعد أن تولت سلطة اشتراكية الحكم في الجزيرة الكاريبية. وكان أن قاد الرئيس الأمريكي رونالد ريجان عملية عسكرية باسم «الغضب الساطع» سقط فيها قتلى بالعشرات بعد أن حقق هدفه.

مررت على رئيسي في المكتب، لأخبره انني قمت بعملي وسوف أذهب، فابتسم لي ابتسامة صغيرة، وقد كان مشغولاً بمكالمة في الهاتف الثابت.. فهمت من حركة يده وهو يرفعها ويخفضها أن عليّ أن أنصرف لأن لديه أسراراً يرغب في أن يحكيها في المكالمة دون أن يسمعه أحد.

كان رئيسي لطيفا مع النساء، سيئا مع الرجال. تماما كمديري هنا في الشركة الاستهلاكية المتخصصة في توزيع الألبان

المجففة المستوردة من دول أوروبية، الأول أعلم تاريخه تماما أنه تربى في مخيمات لبنان، فلسطيني مشرد، الفرق بيني وبينه أنني مشرد ولي وطن، وهو مشرد ولا وطن له أو هكذا يقول. أما المدير الثاني، الحالي فلست مهتماً به تماما، لم أعد بأن أعرف تاريخ الأشياء حتى لو أن ذلك لا يبارحني، لكني مرة سمعته يحدث رجلاً زائر بالمحل، يبدو أنه صديق حميم، وكان يحلف:

«لو أن إسرائيل منحتني جنسيتها لقبلتها»

لا أدري إن كان يمزح أم لا، فقد كان يحب أن يخفي شخصيته الحقيقية وراء هذه التمويهات المستمرة، وهذا سبب آخر يجعل التعرف على شخصيته الحقيقة صعباً، بل كذلك موطنه، ومرات بفعل خيالي أتخيل أنه من تلك الجزيرة التي غزاها الأمريكيون.

وأنا أقود سيارتي عائدا للبيت، مررت على بقالة صغيرة بجوارنا لشراء بعض الأغراض المتعلقة بالبيت وطفلتنا، لاسيما الحفاضات التي باتت واجباً شبه يومي، كذا قليل من الخبز، وكنت قد نسيت أن جاري قد سافر، واشتغل دماغي في تخيل مشوارنا اليومي على الكورنيش قبل ان انتبه أنني سرحت في أمر قد انتهى، فأبو محمود الآن في بلده، إن لم يكن قد وصل القرية في الصعيد جنوب مصر.

في البقالة كان يقف أمامي رجل، طويل جداً. كأنه لاعب سلة، يرتدي «تي شيرت» لرجال الجيش، يبدو من سحنته أنه أفريقي، ولكن لست متأكداً. يشير شكله إلى أنه شخصية

مهمة أو أنه يدعي الأهمية، لكن ما لفت انتباهي أكثر، الكلمة المكتوبة في «التي شيرت» على الظهر، بالإنجليزية Grenada قلت لنفسي:

«ياه..»

كررتها مرتين وبصوت مرتفع، ويبدو أن الرجل شعر بذلك أو أنه ذكي، فقد توقف لينظر نحوي، وسألني:

«هل من خدمة؟»

ترددت أن أتكلم معه، فقد تذكرت موقفي مع شاب الإعلانات، كان ذلك درس لي بأن أتوقف عن تصرفاتي الغبية عن ملاحقة ما يدور بأذهان الناس أو ما تقوله وجوههم من أسرار مغلفة، وهو لم يتركني، كرر قائلاً:

«نعم هل من خدمة؟»

قالها بالإنجليزية.. فأشرت دون أن انتبه إلى الكلمة على ظهره.

ضحك الرجل كثيراً.. وهو يضرب على قفاه، كان يرتدي مجموعة من المسابح في رقبته وسلسلة بلاستكية مضيئة تصدر ألواناً متداخلة تظهر من على البعد بدرجة أوضح، واتضح لي أنه سكران ففي مثل هذا الوقت يبدأ السكارى في مغادرة الفنادق الليلية. قال لي:

«أنا أمريكي..»

كررها.. قائلاً:

«أتفهم.. أمريكي.. اليوم عيد ميلادي»

استرسيل يخبرني بكلام متقطع.. أن عيد ميلاده يوافق ذكرى قديمة فقد ولد في اليوم نفسه الذي كان فيه الجنود يغادرون

الجزيـرة المكتوبـة علـى ظهـره، كان يشـير بأصبعـه للـوراء وهـو يواصـل الـكلام، والزبـد يتطايـر مـن فمـه، وعينـاه تبـدوان متوجعتيـن وهـو يحكهمـا بقـوة فيـزدادن التهاباً.

لـم أحفـل بسـماع هـذه الورطـة التـي وقعـت فيهـا، وشـعرت بالحرج أننـي سـأغادر دون اسـتئذان وفعلتهـا، فـي حيـن كان الرجـل مسـتمراً فـي الـكلام.. دون أن أفهـم السـبب الـذي جعـل هـذا الحـدث يطاردنـي الآن فـي هـذا المتبقـى مـن الليـل.

بث أخير
ولادة خاطئة

١

لكـي لا يحصـل خلـط.. فهـذه الحكايـة ليسـت عنـي.. أنـا مـن يكتبها.. أو يسجلها أو يسترجعها في ذاكرته، يا عزيزي.. لا أعلم من كنت أخاطب بالضبط!! وأنا أجلس وحدي في مقهى ليلي قريباً من ذلك البرج الذي شهد نهاية الحكاية.. الحكاية التي بطلها شخص آخر.. هذا إذا كنت ما زلت أؤمن بأن هناك أبطال في العالم.. وهي «حكاية» وقد لا تكون كذلك.. يعتمد ذلك على تفسيرنا وفهمنا للحكايات والروايات.. لنقل إنها سردية ما عن غموض حياة ذلك الفتى الذي عرفته في سنوات الصبا وكان زميلي لأيام قليلة في مرحلة مبكرة ومن ثم لم نلتق بعدها إلا قبل أيام قليلة من وفاته، لقد مات منتحراً بأن هوى بنفسه من برج مرتفع في مدينة دبي، ووقع على الأرض ميتاً.. إنه البرج الذي تفصلني عنه بضع أمتار قليلة.

لا يمكن أن نتخيل أن ينجو إنسان من الموت بعد أن يكون قد سقط من هذا العلو، إنها جاذبية الأرض المرهقة، ربما لو

كان قد حاول الانتحار على سطح القمر لكان الأمر قد أصبح أقل قدراً، جاذبية الأرض هذه كانت سبباً في كثير من الآلام البشرية، فهي التي تجعل القنابل تسقط من السماء باتجاه الأرض لتقتل الأطفال والأبرياء في الحروب.

وأنا أفكر في قصة صديقي القديم، أسأل نفسي دائما من مرة لأخرى عن ما هي الحكايات.. القصص؟!.. هل هي أكاذيب أم واقع نعيد ابتكاره في الكتب لنتسلى به ونحقق المتعة، جميعنا سواء كنا مؤلفين أم قراء..

وإذا كان ليس من شأني أن أزجُ بالقارئ في أفكاري بخصوص التأليف.. الرغبة في أن تكتب أو أن تتكلم.. لكن أظن أنها خصلة إنسانية لابد منها، لا يمكن للإنسان أن يبقى صامتاً ولزمن طويل جداً.. حتى لو وضعوه في حبس منفرد داخل زنزانة صغيرة فلابد أنه سوف يثرثر مع نفسه، حتى لو كان ذلك همساً أو دون أصوات مسموعة، فالأبكم أيضا ثرثار.

كما يجب أن ألفت الانتباه إلى الثرثرة الأخرى الأكثر تأليماً تلك المرتبطة بالصور.. فالمشاهد عجيبة والصور قاسية أكثر من الكلام.. بمجرد ان تبدأ في التداعي لدى الذاكرة يكون لك أن تصبح إنساناً آخر سعيداً أم تعيساً، والواقع أن الناس.. معظمهم يميلون للاحتفاظ بالتعاسة في أذهانهم.. الفشل والمعارك الخاسرة.. التفاهات والحقارات التي يكونوا قد عبروا بها ذات يوم ما..

إن قصة صديقي كما تبدو لي من خلال ما عرفته وسمعته وما تخيلته لكي أملأ الفراغات المعتمة، هي قصة مليئة بالتعاسة،

كان كائناً عجيباً ليس لأنه أراد ذلك بتقديري، بل لأن الحياة جرفته لكي يفعل أشياء لم يكن يرغب فيها.. ربما وعلى أية حال لست متأكداً. لا يمكنني الدخول الآن إلى دماغه لكي أقرر بدقة المعاني الضائعة والمفقودة. ولو افترضنا أني فعلت ذلك، فالإنسان من الداخل كون يغلي ويمور.. ليس لأي كائن بشري من حقيقة واحدة داخله لكي ندعي قدرتنا على فهمه، أي أنه يفهم ذاته أو من يكون بالضبط.

شخصياً يا عزيزي.. لا أفهم بالضبط لماذا يثرثر الناس، أو يميلون لتجديد وإحياء الصور والذكريات والمؤلمة؟ يمكن لي أن أقدم لك إجابة شافية لكنها ستكون في حدود ما اعتقده (أنا)، ولكن بالنسبة لك (أنت) فلا أظن أنني سوف أكون مقنعاً لك. ولو كنت صادقاً معك، لأقل مع نفسي، فحتى الإجابات التي أقدمها لنفسي ستكون محل شك يطل بعد قليل من الوقت.. فأنا إنسان كثير الريبة في الأشياء من حولي.. أعني الأفكار والوقائع والحياة عموما. ليس في العالم من ثوابت حقيقية ولا عموميات واضحة، هناك دائما غموض وأسرار نحن جزء من صنعتها، لا اعتقد أن العالم كان سيستمر لولا هذا النفس الغامض الذي يكتنفه.

يمكنني أن أفسر الأسباب الواضحة التي ترجع وراء تمسكي بفكر محدد أو نمط عيش معين، لكني أعجز عن فهم الأسباب الماورائية والعميقة، لأسميها الأفكار المدفونة في تلافيف الدماغ، تلك التي تطل مرات مجهولة في الأحلام أو مع الصداع القوي لاكتشف أنني إنسان آخر غير الذي أعرفه أو

كنتـه.
هـل مـررت بهـذه الحالـة يـا عزيـزي؟ ان تكتشـف مـرة أنـك مزيـف ولسـت أنـت.. كأن ثمـة أمـر خاطـئ حـدث ذات يـوم عندمـا زرعـوا روحـك فـي جسـد ثـانٍ أو بدقـة أكثـر أنـك ولـدت فـي وقـت خاطـئ أو مـكان ليـس مفتـرض أن تولـد فيـه.
ورد فـي الأسـاطير التـي تخـرج مـن ذاكرتـي.. ولا أعلـم لهـا مـن موضـع معيـن.. هـل هـي مـن ابتـكاري أم مـن قراءاتـي أم ظنونـي، أن هنـاك ملـك مكلـف مـن قبـل اللـه بـأن يـزرع الأرواح فـي الأرحـام، ربمـا لـم يـرد ذكـره كثيـرا فـي الكتـب الدينيـة، نحـن نعـرف عزرائيـل الـذي يخلـع الـروح مـن البـدن خلعـاً ويصعـد بهـا إلـى السـماء، لكـن لـم نفكـر ذات يـوم مـن هـو ذلـك الملـاك الـذي يهبنـا الحيـاة، وهـذا موضـوع آخـر، لـن اسـتفيض فيـه معـك.. لأنـك سـوف تهلكنـي بالأسـئلة.
مـا سـأقصه لـك أن الملـك الـذي يهـب الحيـاة، قـد يعيـش مـرات بعـض المسـرات الخاصـة فيقـوم بإبـدال روح محـل روح. مثـلا مـن المفتـرض أن فلانـاً يولـد مـن أبويـن معينيـن ولكـن يحـدث ارتبـاك أو خطـأ أو سـكرة لهـذا الملـك المكلـف، فيحـدث أمـر اعتباطـي أو التبـاس جـراء ذلـك، وتكـون النتيجـة كارثيـة.. اعتقـد أننـي مـن هـذا النـوع، لقـد جئـت نتـاج إحـدى هـذه الأخطـاء لواحـد مـن كبـار الملائكـة لـم يتقـن واجبـه.
أنـا مـن هـذا النـوع ربمـا لقناعتـي بـأن قصـة صديقـي هـذه، كان مـن المفتـرض أن تكـون قصتـي، ربمـا لأننـي افتقـدت للشـجاعة والمغامـرة.. فمـا حـدث مـع مرجـان ليـس إلا تلخيصـاً لعنفـوان

رجل قوي وشديد، لم يعرف أن يستجيب للحياة على علاتها، كما فرضت التقاليد والقيم المتوارثة، ولا أعلم أن كان ما أفكر فيه صحيح أم لا.

يقاطعني صوت ما من داخلي، من الذاكرة الغريبة التي أجهل كيف تعمل، أن هذا الملك الذي يزرع الأرواح موجود بالفعل وليس من وضع خيالاتي، وأنه ورد في حديث نبوي «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكا فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها».

هنا سوف أشكك في عمق ذاكرتي ومدى قدرتي، إذ يبدو أنه ليس من شيء نفكر فيه إلا وقد وقع علينا من قبل، ونحن نعيد ابتكار ما نعرفه وما نحس به.. وبخصوص هذا الملك الخالق واهب الحياة فهو لم يتم التركيز عليه كثيراً، ذلك الذي يتولى عملية نفخ الروح مباشرة بدلا عن الله ليعطينا إنساناً جديداً.

تتذكر أمي وهي التي لم تكن ذات اعتراف كبير بالتفاصيل الملائكية لنزعتها الإلحادية، وكنت أشك مرات كثيرة في ذلك.. أن الملك الذي زرع روحي كان قد جاءها وهي تستحم في الليل، كان شيء يتحرك في بطنها، ويفور، وكم كانت فرحة ككل الزوجات الجدد أنها سوف تنجب ابنها الأول.

لكن للتوضيح فقد تأخر ميلادي ربما سنتين أو أكثر، هكذا تقول أمي.. هي التي لها ذاكرة في هذه الأمور، بخلاف أبي الذي لا ينزع للتفكير في قضايا كهذه ويراها تفاهات. في حين أن حياته في حد ذاتها تبدو لي هي الأخرى تافهة.

أقول ذلك الآن بعد مضي عمري في ترحلاتي وغرابتي ورغباتي

غير المفهومة، ألم أخبرك يا عزيزي أنني أجهل نفسي. ربما لم أقل ذلك بوضوح.. أجهل نفسي وأحاول أن أفهمها من خلال قصة صديقي الذي مضى، حياته التي تشبهني أو تكاد تماثل حياتي لولا أنني جبان.

لكي لا نثرثر كثيراً يا عزيزي حول أمور خارج موضوعنا الأساسي.. سأوضح لك بعض النقاط.. حتى لا تنزعج أو ترتبك لاحقاً أو تقاطعني.. فما سمعته مني، فيه حديث باسمي أنا، لكن في الواقع هو عن ذلك الصديق القديم، أعني أن قصة الملاك زارع الأرواح تتعلق به وليس بي..

طبعاً ستقول لي إنني أثير خلطاً في دماغك وأروي لك أشياء باسمي في حين أن المراد بها ذلك الرجل المنتحر، لكن لطفاً، هذا هو ما يكسب الحكاية متعتها. أعني هذه القصة الغامضة، لهذا أسمح لي إذا لم ترغب في أن أصنع هذا المزج والخلط، فأرجوك لا تسمع لي وأمضي عني. دعني أسجل ما عندي لنفسي على الشاشة أو الورق. سأكتب وأكتب. لن أهتم بك إذا كنت ستتجاهلني. أو على الأقل سوف أجلس وحدي هنا في هذا المقهى إلى الفرج أثرثر وأثرثر، دعني وحيداً إن مللت.

لكن قبلها دعني أخبرك بسر وأوعدني أنك سوف تحافظ عليه ولن تنقله لأحد. يقال إن السر ساعة يخرج ليس بإمكانه أن يجلس هادئاً، وسيبقى يدور في الأرض.

إن هذه الحكاية مرات أتخيل أنها قصتي أنا وليست قصة ذلك الرجل المنتحر، ربما كانت حكايتي ستنتهي بهذا الشكل لو أنني مضيت في طريقه، لن أخبرك عن حياتي الخاصة ولن

تهمك كثيراً، حتى لا تحاول أن تبحث عن أوجه التشابه بيننا. التشابه في حياتنا، أنا وهو يجعلني أحياناً لا أميز ما أقوله لك بالضبط. هل يعكس صورتي أم صورته هو. ليس عندي إجابات واضحة ربما أنا نفسي أعاني نوعاً من التضليل في حياتي ومعرفتي، ولدي الإحساس نفسه بأن روحي ليست لي، أي أنا مستلف على هذا الحيز الذي أشغله والذي يسمى بدني. إنها خطيئة ذلك الملاك السكران الذي فعل ما فعل دون أن يميز عمله بدقة.

ربما لم تروي أمه له قصته، كيف ولدته بالضبط، ربما لم تكن ذات علاقة حقيقية أو مدعاة مع الملائكة والعوالم الخفية والغيب، وليس من مهامي أن أصدق أو أكذب ذلك..كيف ولدت بالضبط أو أن هناك قصة خفية وساحرة يمكن أن تُروى في الأساس، كأن يدخل ملاك متخفي كما في كتب التراث والكتب السماوية، ليقوم بعمليات مثل نفخ الروح في الأبدان أو ممارسة أمور غير مفهومة، كما تصر أمي على أن ذلك حدث وأنها رأته بأم عينيها، كيف استطاع كنور أن يتسلل إلى داخل جوفها، رحمها، مثله مثل أشعة ليزر شفافة تصل إلى ما تريد وتقوم بواجبها من تصوير الأجزاء المخفية والدقيقة من جسم الإنسان ولاحقاً بعلمانيتها وعدم اعترافها بالله تحاول أن تفسر الأمر وفق مناظيم العلوم الحديثة:

«الملائكة كائنات في الطبيعة والكون.. وهي موجودة وتتحرك في الفضاء مثلها مثل إشارات الراديو والتلفزيون التي لا نراها إلا عندما نتملك جهازاً محدداً يقوم بتفسير الصور والمسموعات»

يضحك أبي غير المبالي بأي حاجة في العالم، ثم يمضي في تسلية نفسه بمراقبة عصافير صغيرة في حديقة البيت، وهي ليست بالمكان الواسع إنما مربع بحدود مترين في مترين من النجيل الأخضر وقفص فيه تلك الطيور التي يدعي في بعض الأحيان أنه قادر على يستمتع بوجودها أكثر من استمتاعه بالوجود معنا أنا وأمي.

٢

فجأة افتقده متابعوه على شبكات التواصل الاجتماعي وصفحات الانترنت من مدونات ومنتديات دردشة وغيرها، فقد اختفت الشخصية الغامضة التي تعامل معها الجميع ولمدة ستة شهور أو أزيد بقليل، كان يرد على رسائلهم ويجيب على الأسئلة ويشارك بالآراء ويبتدر الموضوعات المثيرة في قضايا مختلفة وإن كان محورها قصة حياته ومغامراته الشخصية، وذات منتصف ليل غاب تماما، تراكمت الرسائل على المسانجر بالفيسبوك وغابت ردوده على موضوعات كان قد ابتدرها منذ الظهر، ولم يمض قليل من أول الصباح الجديد إلا واختفت كل صفحاته تقريباً، لنقل تقريباً لأنه صعب أن نتابع كل شيء على الإنترنت.

كما يقول المثل الصيني: «في الوقت الذي لا تزال فيه الحقيقة ترتدي حذاءها، تكون الشائعات قد جابت جميع أنحاء الصين»، فهاهي فعلاً الشائعات تجوب كل الدنيا، حدث مثل ذلك تماما، حيث لم تمض سوى أقل من ساعة حتى جابت الشائعات كل البلاد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، بل

وصلت مشارق الدنيا ومغاربها لأن أحباب وأصدقاء «مرجان عبد الكريم» كانوا من بنى جنسه وغيرهم في كل البلدان، وإن كان أكثرهم ينتمي إلى شعب السودان المشرد في الدنيا ولشتى الأسباب والعلل.

منهم من كتب ودون تدقيق أو مراجعة ذهنية لمصدر الخبر، أن الرجل قد مات ولكنهم لم يجيبوا على سؤال مفاده، من قام بمسح كل محتواه على الانترنت؟!

وثمة من قال إنه انتحر وبهذا أعط نفسه مهلة لكي يقوم بهدم مملكته الافتراضية، وهناك رأي مهادن وسهل ركز على أن مرجان آثر أين يغيب عن العالم ويعيش حياته الخاصة بعد أن ترك الناس تعيش معه مأساة حياته لأيام طويلة.

وإذا كانت البشر لها مزاجات مختلفة وآراء متباينة فقد تباعدت التأويلات والحيل لحل هذه المعضلة، فهناك من قال إنه طبيب نفسي كان ينشر قصة مريضه الذي يتعالج معه يوماً بعد يوم بهدف التسلي بها، وهناك من قال لا الواقع إن الطبيب كان يطلب من المريض أن ينشر القصة بنفسه، وأنه لا يقيم في السودان لأن الثقة بالأطباء النفسيين ضعيفة جداً.

وهناك شائعة مضحكة قالت إنه رئيس الجمهورية بشحمه ولحمه يتسلى في الليالي وبعض من نهاراته بأن يغسل أحزانه ويتريث قليلاً من حروبه ضد شعبه وغلوائه، لكن مناصري الرئيس قالوا العكس ولابد لهم ذلك إذ قرروا أن الرئيس لا يمكن أن يكون قد فعل ذلك لأنه مشغول جداً، ونسوا بهذا أنهم يطعنون في خيال الرئيس بحسب ما كتب أحدهم معلقاً،

لا يمكـن لرئيسـنا أن يكـون بهـذه البراعـة!!
أخبرتكـم بالشـائعات التـي لا حصـر لهـا، إلـى أن ظهـر بيـان رسـمي علـى موقـع وكالـة الأنبـاء الحكوميـة، قبيـل الفجـر، يقـول «إنـه وبفضـل جهـود أجهـزة الاسـتخبارات وحـدة المتابعـة الأمنيـة علـى الانترنـت وشـبكات التواصـل الاجتماعـي، فقـد تمـت متابعـة المدعـو (مرجـان عبـد الكريـم)، حيـث تـم القبـض عليـه فـي سـاعة متأخـرة من مسـاء أمس.. وأودع السـجن وستجري معـه التحقيقات اللازمـة وتعـد السـلطات المختصـة أن توافـي المواطنيـن الكـرام بالتفاصيـل فـي حينهـا.. يشـار إلـى أنـه تـم حـذف كافـة الحسـابات التـي صـرح بهـا المتهـم»..
هـذا البيـان إذا صـح، لأن هنـاك مـن شـكك فيـه وهـذا أمـر طبيعـي طبعـا فـي دولـة شـغلها الأكاذيـب.. مـن الواضـح أنـه مقتضـب وغامـض، يفتقـد للتوضيحـات اللازمـة لكشـف المخبـوء وإرواء ظمـأ النـاس، فـلا أحـد تأكـد مـن خـلال البيـان مـن طبيعـة مـن سُـمِي بالمتهـم ولا ماهـي تهمتـه بالضبـط، وهـل كان يهـدد السـلطة مـن خـلال مـا كان يكتـب بـأي شـكل كان؟! لـم يكـن مـن أمـر مفهـوم، لهـذا اسـتمرت الشـائعات تنسـج إلـى عـدة أيـام، فـي حيـن لـم تبـادر الجهـة التـي أصـدرت البيـان عبـر وكالـة الأنبـاء الوطنيـة لتقـول جديـدا. يبـدو أنهـا انشـغلت بمـا هـو أهـم أو أهملـت الأمـر لأنهـا كانـت تكـذب فـي الأسـاس. وهـذا ربمـا رسـخ لـدى الكثيريـن أن الموضـوع برمتـه ليـس إلا حبـة مـن حبـكات الأمـن لإلهـاء النـاس عـن الفسـاد والانتخابـات التـي انتهـت للتـو بتزويـر كبيـر، وفـاز بهـا الحـزب الحكـم كالعـادة، ومعهـا كان اسـتمرار الحـروب

ضد المتمردين والنازخين في بقاع الوطن المختلفة.
وراء القضبان جلس شاب، لنقل صبي يافع في السادسة عشر من عمره، في حين جلس القاضي في مكانه المعتاد، تمّ بث المحاكمة تلفزيونياً على الهواء مباشرة، وشاهدها الملايين قطعا، ليس ثمة إحصائيات. كان أمرا مخزياً أن يعرض صبي لم يبلغ الحلم بعد لهذا الترويع هكذا وصفت الحالة، وحتى لو أن القصة كانت حقيقية كما تدعي الدولة، غير أن أغلب ملاحظات الناس والأصدقاء والأحباب أنه شجاع جداً.
انشغل الكثيرون بتناقل صور الفتى في المحكمة جالساً في القفص أو مقتاداً بالسلاسل إلى داخل القاعة، وفي وقت وجيز تحول الصبي إلى بطل قومي في البلاد ووضعت صورته في البروفايلات على الفيسبوك والمواقع، والكل قد كتب «الحرية لمرجان».. وسواء كانت تلك المحاكمة مفبركة أم صحيحة، فقد زاد الأمر غموضاً، من هو ذلك الصبي؟ وما قصة مرجان بالضبط؟ لا أحد كان يملك معلومة مفيدة سوى أن الشائعات تدفقت من جديد.
في صباح اليوم التالي للمحاكمة تم القبض على مجموعة شباب تظاهروا في شارع عام بوسط العاصمة وهم يحملون لافتة كتب عليها «كلنا مرجان».. كانوا قطعا يقلدون طقساً انتشر في ما يسمى بثورات الربيع العربي التي انتهت بحصاد مئات الألاف من الشعوب العربية في حروب طاحنة، وقد أطلق سراحهم في منتصف النهار دون أي مساءلات، فقط كتبوا تعهدات ألا يقوموا بأي عمل من هذا القبيل مرة أخرى.

هوية مرجان ظلت غامضة، حتى بعد ظهوره علناً، لا أحد كان متأكداً أنه رأه من قبل. طبعا هناك إدعاءات كثيرة للبعض ممن قالوا إنهم يعرفونه أو شاهدوه في مدن بعينها من البلاد أو خارجها، لكن لا أحد كان لديه إثبات دامغ، وحتى الذين نشروا صوراً له معهم كان من الواضح أنها مشغولة بالفوتوشوب، وأن صور مرجان مأخوذة من وضعه الذي ظهر فيه بالمحكمة.. صبي ليس طويلا جداً، يعني متوسط القامة، له أنف صغير وعينين صارختين كما لو أنهما لبنت وليس لولد، شعره حليق تماما، أصلع. له أذنين كبرتين تظهران من الجانبين بوضوح تام.

بقدر ما فتحت قضية الشباب الذين تم اعتقالهم حديثاً حول حرية التعبير في بلد يفتقد لهذا الشيء، فقد كان ثمة حديث يدور أيضا حول الحريات على الإنترنت أين تبدأ وأين تنتهي؟! ولم يكن للدولة قانون ينظم هذه المسألة أو يعرّفها بالشكل الواضح، وكما قال أستاذ جامعي في محاضرة بالنادي الثقافي الفكري الليبرالي بوسط الخرطوم بعد يومين من مظاهرة الشباب:

«إنه حتى لو وجد هذا القانون فلا أحد يلتزم بالتشريعات ولا يحترمها.. فثمة من هو فوق القانون والتشريع ويتعالى على الكل»

لم تمض سوى أيام على بداية المحاكمة حتى باتت الحكومة أكثر تشديداً وتقييداً على التدوين على الانترنت والمواقع الاجتماعية بما فيها «الوتس آب»، كل فعل أصبح يراقب

وبشدة والاعتقالات مستمرة، وسط استمرار طقس كتابة تعهد من قبل المعتقل ومن ثم اطلاق سراحه، وإذا كان دون سن الرشد التي حددت بثمانية عشر عاماً، فسوف يقوم والده أو ولي أمره بكتابة التعهد بالنيابة عنه.. المفارقة أن الصبي مرجان الذي لم يعرض من جديد على أجهزة التلفزة رغم إشارة وسائل الإعلام الرسمية إلى أن محاكمته مستمرة، كان عمره بحسب الإعلان الرسمي دون سن الرشد.

بحسب تقارير لمنظمات دولية لها فإنه وخلال وقت وجيز تم اعتقال مئات المدونين وجرى اقتيادهم للحجز واطلاق سراحهم، ويعد الحصول على أرقام دقيقة أمراً مستحيلاً، وما بين التحذيرات المستمرة للسلطات والشائعات التي تروج حول مصير بعض الشباب الذين سيقادون للمحاكم أيضا، ومن تعرضوا للتعذيب، كانت قضية مرجان تكتسب بعداً دولياً وتتحول لواقع وحقيقة أكثر من كونها قصة ملفقة كما اعتقد الكثيرون ذي بدء تشككا في الأمر.

٣

كنت أضحك مع نفسي، ربما لأنني الوحيد الذي يعرف القصة الحقيقة لمرجان عبد الكريم أو عبد الرحمن عبد الكريم، أعرف أن هذه القصة التي تشبهني يمكن أن تكون قصتي أنا وأنها عبر ما نشر عنها في الإنترنت باسم ذلك الشخص الوهمي. هي ليست القصة الكاملة أو المفترض أنها حدثت.. فثمة أمور كثيرة فيها غير واضحة، لأن من لا يملك القصة الأصلية لم يكن جريئاً على إبراز كل التفاصيل.

بعد البث
هبوط الطائر الأسطوري

١

يهبط الطائر الأسطوري من علٍ محاولاً أن يقف على سطح البناية ذات القبة الدائرة والتي تبدو كما لو أنها مسجد، في ركن ما يوجد مصلى فيه عشرة رجال يؤدون صلاة العشاء في خشوع مشوب بأفكار مشتتة حول مشاغلهم، حول ما يجب أن يحدث إلى الصباح هنا، فالسهرة طويلة، ليس أقل من تسع ساعات قبل أن ينبلج يوم جديد.

إنه مبنى ليس كبيراً، يتكون من طابقين، طابق أرضي مخصص للمكاتب الإدارية يعني المحاسبة والإدارة البراغماتية التي تعمل على تفويض أمور الموظفين، تعد مسائل كالإجازات السنوية وشهادات المرض والاعتذار عن العمل لأي سبب كان. في هذا الطابق يوجد كذلك مكتب الأمن، وهذا مهم جداً ففيه الرجل المكلف بحماية المبنى وعلى بعد كيلومتر منه من كل اتجاه، فآلات التصوير المستخدمة هنا من النوع الحديث

جـدا، تعمـل بطريقـة ليزريـة عجيبـة كمـا شـرح المديـر الأمنـي لرئيـس مجلـس الإدارة عندمـا قابلـه مـرة واحـدة فـي حياتـه.
فالرئيـس الأكبـر لا يمكـن لأحـد أن يـراه أو يتكهـن بصورتـه فهـو مثـل إلـه خفـي يفضـل أن يوجـه تعليماتـه مـن علـى البعـد، يقـرر فـي كل شـيء هنـا. فـي الطابـق نفسـه توجد حمامـات للنسـاء وأخرى للرجـال طبعـا، إنهـا الضـرورة البيولوجيـة ولا أحـد يمكنـه الفـكاك منهـا. الحائـط الفاصـل بيـن القسـمين عـازل تمامـا لا يمكـن لأي صـوت أو حتـى شـعاع ليـزري أن يخترقـه، وهـذا تصريـح للمسـؤول الأمنـي الأصغـر مـن المديـر الأمنـي، فهـذا الأصغـر لـه معلومـات أكثـر دقـة كمـا يتـم تصويـره فـي المبنـى مـن قبـل الموظفيـن.
سـنذهب إلـى السـطح مباشـرة ومنـه سـنرى أن القبـة زجاجيـة مائلـة للعتمـة، تشـبه زجاجـات السـيارة التـي تسـتخدم عـازل الضـوء.. قبـل أن تنتهـي أطـراف الزجـاج إلـى البـلاط الأسـمنتي الملـون، هنـاك نوافـذ صغيـرة جـداً. لا تـكاد تمـرر سـوى عصافيـر صباحيـة تفضـل أن تجلـس عليهـا بعـض المـرات لـو أن الهـدوء كان سـيد الموقـف.. حتـى الطيـور تعـرف أن الإنسـان يمكـن أن يكـون شـريراً، بـل هـي متأكـدة مـن ذلـك فتسـرع مـرات كثيـرة جـدا للهرب، مـع سـماع خبـط الأحذيـة ذات الكعـب العالـي، النسـوية، فهنـاك أكثـر مـن سـيدة وآنسـة هنـا يعملـن فـي وظائـف تعتمد»علـى إبـداء مفاتنهـن أمـام المشـاهدين» كمـا قـال رئيـس مجلـس الإدارة مـرة أمـام الملأ فـي احتفـال عـام.
الطائـر الأسـطوري يتجـول فـي هـذه العتمـة، فقـد أظلـم المبنـى ومـا حولـه فجـأة، لأول مـرة تنقطـع الكهربـاء عـن المدينـة التـي ليـس

بإمكانها أن تعيش في الظلام كما يتوقع الناس، ولا أحد يعرف السبب في ذلك، ثمة شائعات كثيرة وقليل من الحقيقة.
قيل إن الكابل البحري الذين يأتي بالكهرباء من محطة في جزيرة وسط الماء، قد انقطع لأن سفينة ضخمة اتخذت طريقاً خاطئة ودخلت في منطقة غير مسموح بالسير فيها للسفن المدنية. وكان بإمكان رجال خفر السواحل توجيه بنادقهم لكن مسائل حقوق الإنسان أصبحت شأنا دولياً وكرتاً يستخدم ضد الكل. وثمة توجيهات واضحة للجنود.. ممنوع.. ممنوع.. وقيل كذلك أن طائرة حربية ألقت قنابل من السماء على الجزيرة فاحترقت المحطة ولا يعرف من يكون الفاعل؟ هل هي قوات أمريكية تنتقم لأمر ما؟ ولكن هل تنتقم من نفسها؟ فالمعروف أن هذه الجزيرة قاعدة أمريكية يتمترس فيها آلاف الجنود من المارينز. يمكن أن يحدث ذلك كما كتبت بعض الصحف فالأمريكيون بارعون في اختراع التوهيم، أم هي قوات لمسلحين يصفون بالتشدد يريدون كذلك الانتقام لما يخصهم؟ أي من أعدائهم الأمريكيين.. أيضا لا يمكننا أن نتصور الوضع بشكل منطقي ما دام الأمريكيون لهم كذلك حيلهم.. وهناك شائعة ثالثة تقول إن ما حدث عن قصد لأن خطة سرية يتم يجري تدبيرها لتدمير المحطة الفضائية، وفي الصباح اتضح أن ذلك ليس صحيحاً.. كذلك لا أحد تأكد من قصة الطائرة التي رمت بالقنابل، فيما بقي خيار السفينة هو الأكثر موضوعية، دون تأكيد نهائي.
قبل أن يأتي اليوم التالي، كان الطائر الأسطوري قد توقف

عنـد ركـن مـن السـطح فـي الجهـة الشـمالية الغربيـة مـن القبـة ليرينـا مـاذا هنـاك، مـاذا يحـدث فـي الظلام، حيـث يجلـس عـدد مـن الموظفيـن الذيـن يعملـون فـي المبنـى، بعضهـم يحتسـي الشـاي والبعـض يتنـاول وجبـة عشـائه وثمـة مـن يدخـن، ترتفـع مـع الليـل الـذي افتقـد للبـدر وانقطـاع الكهربـاء سـخرياتهم مـن أمـور كثيـرة حتـى مـن أنفسـهم والعمـل الـذي يؤدونـه يومياً هنـا، وقصـة السـخرية مـن الوظيفـة قـد تبـدو جديـدة، فالظـلام يفتـق الذهـن ليحكـي ويثرثـر بخـلاف الضـوء الـذي يفضـح الوجـوه والشـخوص، ويجعـل الإنسـان خجـولاً أحيانـاً.

يحـاول الطائـر الأسـطوري أن يسـمع بدقـة تامـة مـا الـذي يـدور، ويحـاول كذلـك أن يتجنـب رؤيتـه مـن قبـل أحـد، لأن لديـه مهمـة معينـة يجـب أن لا يشـعر بـه مـن هـم فـي المـكان، هـو يعـرف مـاذا تكـون مهمتـه ومـن أرسـله للقيـام بهـا، لكنـه لا يعـرف مـاذا سـتكون النتيجـة! سـوف ينتظـر ليـرى الأحـداث مـا الـذي سـوف يجـري فيمـا بعـد؟! وإذا كان ثمـة مـن يتشـكك فـي مثـل هـذه الطيـور، أو يشـك فـي وجودهـا فالطائـر لـن يهتـم لذلـك أبـداً، فسـوف يسـتمر فـي سـرد حكايتـه، مـا الـذي يجـري هنـا فـي هـذا المبنـى المليـء بالأسـرار والقصـص وربمـا الغمـوض.

هنـاك شـاب أسـمر يبـدو عليـه لمسـة حيـاء، لكننـا لسـنا متأكديـن مـن ذلـك! يتحـرك فـي فضـاء الظـلام يصطـدم بالطاولـة الواقعـة فـي مقدمـة المقهـى مـن البـاب الخلفـي الـذي يـكاد يكـون قريبـاً مـن الجـدار الأسـمنتي الـذي يسـوّر سـطح المبنـى والـذي لا يـكاد ارتفاعـه يتعـدى المتـر تقريبـاً. أعـلاه وضعـت مزهريـة عليهـا أزهـار

ذابلة لم يتم ريّها منذ أيام لهذا غادرت الحياة إلى عوالمها السرمدية، فالزهور هي الأخرى لها عالم آخر. هذا ما يعتقده الطائر الأسطوري بل هو متأكد منه، كما أنه متأكد من أن الشاب الأسمر الذي يسمى مرجان ليس له حياء بل هي طريقته في الحياة حيث يحب دائما أن يكون هادىء الطبع إلا في أمر يظن أنه من الضروري له أن يتكلم فيه وهذا نادر، لقد جرّب في الحياة ظروف كثيرة أوصلته إلى هذه النتيجة، أن الصمت أبلغ من الكلام.

يعتقد الطائر الأسطوري، وربما صاحبه الذي أرسله أن الشاب مرجان وراءه أزمة ما في حياته، ولهذا فهو مكلف بالكشف عن هذه الأزمة ما سببها بالضبط، وهل هي حديثة العهد أم ترجع لتاريخ قديم منذ الطفولة أو الصبا؟!.. وفي هذا اليوم بالتحديد مع الظلمة القوية يشعر الطائر بأن مرجان ليس على ما يرام، فرجله مصابة الآن والدم بدأ قد ينزف ورائحته قوية في المكان ولا أحد يسرع ليشاركه في تضميد الجرح أو العناية به، لا أحد يعتني بالآخرين أو يشعر بالشفقة باتجاه موظف عليه أن يغادر عمله بعد أيام قلية بعد أن أنهيت خدماته.

يقول الطائر الأسطوري لنفسه إن كان يتحدث بلغة مفهومة فربما سوف نسمعه جيداً، لأن صوته ارتفع في المكان وأحدث ضجيجاً وربما هلعاً في الظلام، يتكلم هامساً:

«خروج الدم من الجسد دلالة على العافية والتحرر خاصة لأولئك الناس الذين قرروا التوبة أخيرا عن حياتهم الماضية، وهم الآن ينشدون حياة جديدة»

لكنه الطائر، لم يبدو متأكداً أن مرجان قد قرر ذلك، فقط هو يتكهن من حيث ما يعرف وما وصله من معلومات وأسرار أفشى بها صاحبه الذي أرسله إلى هنا.

إن الطيور الأسطورية لم تكن معروفة من قبل، لم يتكلم عنها إلا قلة من البشر، صحيح إنها وردت في الأساطير القديمة وفي ألف ليلة وليلة، فمثلا لدينا طائر العنقاء، أو عنقاء مغرب أو الفينكس.. تتعدد أسماؤه.. لكن طائرنا هذا ليس خرافياً إنه طائر حقيقي جداً. وبخلاف العنقاء التي تولد من جديد بعد أن تكمل دورة ألف عام في الحياة، فإن الطائر الأسطوري صاحبنا لا يفعل ذلك، فهو بمجرد أن يموت، بالأحرى يدمر نفسه لن يكون موجوداً في العالم البتة.

ينهض مرجان مقلبا ذاكرته مع الألم، حيث لا أحد تبرع ليساعده، يتخذ طريقه بهدوء إلى المخرج يكون الضوء قد غمر المكان، لكنها ليست الكهرباء إنها أنوار تشع من هذا الطائر الغريب الذي عليه أن يغادر بسرعة قبل أن يكتشف أمره.. صحيح أنه يمارس التخفي وله القدرة على ذلك، ولكن الحذر مطلوب، إذا علم به صاحبه الأسمر فلا بأس أما سواه فذلك خطر، ولحسن الحظ فالضوء الغامر لم يشعر به من أحد سوى الشاب المقصود بأن يدخل في هذه الهالة الضوئية لكي تغسل روحه وتنقله إلى حياة جديدة عما قريب، أليست هذه واحدة من توصيات المعلم الذي درب الطائر وأرسله إلى هنا.

والرجل الأسمر يسقط من علٍ، مثل البطل النمساوي فيليكس ولكن دون مظلة طبعاً، يشاهد من على النافذة البانورامية في

البـرج الأشـياء تحتـه وهـي تقتـرب بسـرعة مذهلـة.. يـرى حياتـه العميقـة تصبـح ضحلـة، يـرى جنونـه وعالمـه السـرمدي يتلاشـى، يحـس أنـه روحـه أخـرى جديـدة.. أن ثمـة سـنوات أخـرى كان مـن الممكـن أن يعيشـها لكـي يفهـم مـن هـو بالضبـط؟!

الفهرس

قبل البث..... ٧

بث أول: فندق كولن ولسن..... ٩

بث ثان: الروح المنهوبة ٥٣

بث ثالث: اجترار الألم العظيم ٨٥

بث رابع: الأبعد.. الأكثر وضوحاً ١٠٥

بث خامس: الأسئلة الحائرة ١٢١

بث سادس: لسنا شياطين! ١٤١

بث سابع: الشريط العجيب ١٦٧

بث ثامن: حياة محتملة ١٨١

بث أخير: ولادة خاطئة ٢٠٣

بعد البث: هبوط الطائر الأسطوري..... ٢١٩